

خطرات نفس

للدكتور منصور فهمي



جميع الحقوق محفوظة

مطبعة المعارف ومكتبة المناهج

خطرات نفس

للدكتور منصور فهمي

جميع الحقوق محفوظة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

حبب إليّ بعض أصدقائي أن أجمع هذه الخطرات كتاباً
أنشره . وكنت أمام رغبتهم ، أشعر بشيء من الغبطة كلما
تصورت هذه المقالات التي ذهبت أشتاتاً في أنهر الصحف قد
انتظمها سفر واحد وأصبحت أدنى إلى الحفظ عند من يرى
انها بالحفظ جديرة .

لكن الغبطة التي كنت أشعر بها لم تكن لتحفز مني عزيمة
ماضية لجمع هذه الأقوال ، إذ كنت أحس في طوايا نفسي ما كان
يصرفني عن الإهتمام بشأنها . ولعل خير ما أطلع به القراء في
هذه المقدمة أن أصدقهم القول في اظهار ما كان يدعو تارة إلى
الرغبة في نشر مثل هذا الكتاب وتارة أخرى إلى الرغبة عن ذلك .

كان يدعو إلى نشر هذا الكتاب ان بعض ما فيه من الخطرات يرجع إلى ذكريات تتصل بأيام الصبا ، وإن في جمعه وحفظه ما يضمن لى حفظ صورة لهذه الأيام . ومهما امتد بنا الزمن وانقطع عنا ماضينا فسالف المرء عزيز عليه ، ومهما يكن في ماضينا من احسان أو إساءة ففي رحاب النفس له أهل ، وله في باحاتها سهل عند ما يطرق أبوابها متكرراً في زى الذكريات لذّة كانت أو مؤلّة . وذلك لأن النفوس كما تستطيب اللذة ، يطيب لها أحياناً طعم الألم .

وقد حسبت فوق ذلك أن لثمرات القلم المتصلة بالعواطف والتأثرات قيمة وخطراً . وذلك لأن هذا الوجود يصل إلى الإنسان عن منفذين : العقل والحساسية . ومن شأن العقل أن يركّب ويحلل ويعلل وينتهى من تحليلاته وتعليلاته لرد الأمور إلى ناموس الضرورة . ومن شأن الحساسية أن تهز النفس هزاً وتحرك ساكنها وترد الأمور إلى ناموس الانفعال . وليس من شيء في الحياة إلا وهو متصل بشأن من شئون العقل أو الانفعال . وان أبعد أغوار النفس مما يطلق عليه اسم الجبلّة أو الفطرة ينتهى إلى

— ه —

شدة الإحساس بما يميل الناس إليه أو يميلون عنه، أو يدهشون من أمره . ومهما تنوعت العبارات التي تدل على الميل أو النفور أو الاندهاش، فأخر ما يرسب في قرارة النفس من معاني هذه الألفاظ : اللذة، والألم، والإيمان . وفي هذه الخطرات التي أبقياها على حالها منذ كتبتها^(١) يجد القارئ أصداء للذاتي وآلامى وحيرتى التي فيها افصح عن التسليم، وأسلوب من العبادة . فهي في مادتها تم عن أعمق مشاعرى، وفي ثوبها تدل على طاقى فى تحويل روحانية العقل مادة، ومعانيه أصواتاً .

*
* *

أما ما كان يدفعنى لإهمالها فقد يكون مرجعه إلى الاكتفاء بأنها وصلت إلى الجمهور عن طريق الصحف . وكذلك حسبائى أن بعض الإخوان قد لا يرضيه إلا أن أبرز للناس أثراً يتضمن نتائج التحصيل والتفكير العلمى، فتواصل أوشاجه حول رأى

(١) لم أغير شيئاً مما كتبت اللهم إلا اعراب لفظ أو تصحيح آخر لشدة احتراى للغة العربية ويرجع الفضل فى ذلك لصديق الأستاذ صادق عنبر الذى تفضل وتولى بالنيابة عنى مراجعة المطبعة فى أكثر هذه المقالات فله الشكر الجزيل

-- و --

مطروق أو طريف ، وتلتئم موضوعاته حول معلومات تبوب وترتب . وكنت كلما ذكرت نسبي لأهل العلم والتعليم ، أقول في نفسي لعل بنشر هذه الخطرات في كتاب أكون قد سلكت غير مسلك من أتصل بخضيرتهم فأستحق بذلك لومهم . وكان في مثل هذا التفكير مدعاة للتأجيل .

على أن مثل هذا الفكر ما لبث أن تولى عنى عند ما كنت أتذكر أن في التريث اتماً للنضوج ، وأن في التعجل قطافاً لفتح الثمر ، وأن علم المرء يتزايد على توالى الأيام ، وأما حساسيته وتأثراته فقد تكون عرضة للتناقض . وخير للكاتب أن يقدم الأزيد دون الأتقص فيسارع في إذاعة ما تمليه عليه العواطف في حينه ويؤجل عمل العقل والروية حتى يشتد ويقوى .

واعتماداً على ما تقدم ترجح عندي ألا أهمل هذه الخطرات . لكن رب قائل يقول ان حفظها وعدم إهمالها قد يتحققان من غير حاجة لإبرازها للجمهور ، إذ من الميسور أن أجمع ما ارتضيت جمعه ، وأهياه ليسهل على مراجعته كلما دعاني الشوق

— ز —

لمراجعة صور عزيزة من الماضى . على أن ما أغراني لطبعها
وإذاعتها هو يقينى ان الوجود غير ضنين بنفوس تحس كما أحس .
وتتأثر على نحو ما أتأثر . وقد يروق لأمثال هؤلاء أن يطلعوا
على ما دونت كأنه صور لما فى نفوسهم حيال بعض الحوادث
والمشاهدات . فلم ولأصدقائى ولتلاميذى الذين يحبون ما أكتب
ولزوجى وولدى وأهلى الذين هم شركاء لى فى الحياة ومن حقهم أن
يتبينوا على نحو ما يتبين الشريك كل ما يتصل بفكرى وعواطفى،
لكل هؤلاء أنشر هذه الخطرات .

منصور فهمى

القاهرة فى ١٨ من ابريل سنة ١٩٣٠

ضمير قلق

اليوم لا علماً أكتب ولا منطقاً . إنما هو حديث فتي مهموم
في لحظة من تلك اللحظات التي تبعث فيها النفس أعز مكنونها
من الشعر والاحساس . حديث فيه تاريخ حال من أحوال
نفس بشرية يظفر منه القارئ بجزء صغير من أجزاء تلك الحقيقة
الكلية العظمى التي لو استقصيتها لوجدتها مجموعة لتاريخ الكون
في جزئياته . وأن أكرم قسم في ذلك التاريخ ما تضمن أحوال
النفوس ومنازعها .

قال الفتي :

انك تحسبني يا سيدي من أهل السرور وأنصار الصفاء .
يفريك بذلك ثغرى الضحك ، وارتفاع صوتي في محافل الأنس
والطرب ، والتماس المجون في كل إشارة وكل عبارة .

على أنك قد نسيت ، أيها العزيز ، تلك الأوقات التي ألبث
فيها ذاهلاً عن الناس وأحاديثهم . فتسدل على وجهي سحابة
من الحزن لا تترك لناظر فيه أن يتبين علامة من علام النشاط

والأمل . ولا تبق من إشراقه ونضارة الشباب فيه إلا بسمه
خاصة أو هم الناس بها انى معهم فيما يقولون وأفكر فيما يرتأون .
إنه ليخجلنى البقاء يا صديق فى جمع من الجموع وعلى مسح
السواد بينما تكون الناس راغبة فى المسرات واقفة عند أبوابها .
ولقد أعمل جهدى على صد غارات الحزن المتابعة على نفسى كما
تتلاحق الأمواج الرهوبة على جرف حطيم . . وحينئذ أعمد إلى
البعد عن الناس حتى لا يشذ لباسى الأسود من الأسى عن
سرايلهم النضرة من السرور :

كنت أو من بطهارة الحياة إيماناً ، وكنت أحسن الظن
بالناس أيتما احسان ، لأننى لم أخرج إلى ساحة العيش إلا من عهد ،
كما علمت ، قريب . وكنت عند عهدى بالشباب تلميذاً مجداً
كثيراً ما لابتست الكتب وانقطعت للدرس وقليلاً ما لابتست
الناس ونظرت فى شؤون الحياة . ولقد جعل القضاء لطافة من
الكتاب الخياليين على سلطاناً فكنت أصبو صغيراً للصور الجميلة
والخلال الكريمة والأشباح الشريفة التى كانت تخرجها أذهانهم
قبل أن أتصل بحقائق الحياة المرة المؤلمة .

خرجت من عالم الكتب إلى عالم الناس وكنت أتهم أن

الناس يلقونني لأعمل معهم واكتب تحت أعينهم صحيفة من
سفر الحياة الواسع فاملأها برسوم الحق والواجب ، وآثار العمل
والأمل ، وأصور فيها صورة الأب الصالح ، والزوج الوفي ،
والوطني الصادق ، والانسان العادل في نفسه وفي الناس . وكنت
أظن أن كلمات الحرية والاخلاص والفضيلة والرحمة والكمال
وأمثالها مما وسعه المعجم تسعها معاملات الناس بعضهم لبعض
على أنني صدمت صدمة بالغة حين رأيت أن الناس يسرون على
خلاف ما كنت أظن . وان الحياة تكاد تكون جارية لمقادير غير ما
كنت أقدر . وان السجايا التي كنت أظنها من صفات البشر انما
هي لمخلوقات خيالية تبصرنا ولا نبصرها وتراها ولا نراها . هالتي
وأفزعني أن أرى في الحياة مسرحاً واسعاً للنفاق والرياء والخداع
والأباطيل وأن هذه الأشباح الشنيعة قد صرعت تلك المخلوقات
الشريفة التي نسميها الفضائل واستبدت وحدها بميدان الحياة
كله . تساءلت . أكانت الكتب تخدعني وتغير صور الأشياء
فتجعل ضعفاء الحقيقة هم الأقوياء وأقوياءها هم الضعفاء ؟ ؟
أم هو الوجود لم يبلغ بعد في تاريخ نشوءه طوراً تنال فيه الفضائل
منازلها من الكرامة والاجلال وتسير في المعاملات كأنها

الكواكب تجرى في داراتها على سبل ممهدة فتصبح حينذاك القوة والغلبة ميزة للسجاياء وحدها . ثم تسألت هل فترة الحياة من شأنها أن يظل فيها أشباح خيالية تتخذ وكرها في رؤوس البشر وتشبه الأملاك في نورانية أجسامها وتفرى النفوس بالنزعات العالية أم توجد كرام السجاياء حقاً عند أفراد أغنياء بأنفسهم عن الناس معززين منعمين بمداعتها يحسبهم الجهال مهزومين وهم يعيشون كآلهة الأساطير يسخرون من نعيم الناس ولهم من أنفسهم أكبر نعيم . وقلت في نفسى بعد ذلك كله هل القوى في الحياة الاجتماعية هو من يخضع لنواميسها من الرياء والظلم فيخضع ويظلم ، أم هو الذى يحتقرها في قوانينها ليعيش تحت راية مبادئ أخرى تنسجها له تصوراته وخيالاته السامية ؟

إن منشأهمى يا سيدى هو ذلك التنازع القائم بين ما نحن اليه نفسى ونزعاتها وبين المبادئ التى يقوم عليها المحيط الذى يضمنى .

أعيش منفرداً واحداً فى عالم الخيال ، أم أدخل إلى ساحة البشر وأخلع ثوبى الجميل الكريم ؟ !

- ٥ -

مآتمنا

مآتمنا تذهب برهبة الموت ووقار الأسى فهي ممقوتة عند الله
وهي عار علينا في مظاهرها .

يزعم أهل النظر والعلم ان السرور أدعى إلى صنوف الحركات
وان الحزن أدعى إلى السكينة . وذهب ابن خلدون إلى أن «طبيعة
السرور هي انتشار الروح الحيوانى وتقشيه وطبيعة الحزن انقباضه
وتكافئه » !

نعم . صدق في نتيجة رأيه الامام ، فالفرح والوجد أمران
مقدوران على البشر من قديم يغشيان الأفراد والأمم . فأما
الأول ، فأيته الحركة وأما الثانى فأيته السكون . وإذا كان الأول
يخلع على الوجوه بهجة ونضارة فان الثانى يلقي عليها صنفاً من
صنوف الحسن أبلغ معانيه الصبر على احتمال المكروه ، والشجاعة
على احتمال الألم .

إذا صح لى الشك فى قول الأمثال السائرة ان الكلام من
فضة والسكوت من ذهب فلقد آمنت أن صمت الأسى أفصح
من كلامه ، وإشارته أوقع فى النفس من عبارته .

ألا أن الموت لا يطلب الينا إلا أمراً واحداً، هو أن نتعظ به
فانه أفصح خطيب ونحفظ الوفاء لمن يموت في الحزن الصادق .
وما مظهر الحزن الصادق إلا غمامة جميلة تملو الوجه ، ودمعة
حارة تروى الوجنت ، وتأوه صامت ينتزع من أعماق القواد .
روى أن النبي (صلم) أتى ابنه ابراهيم وهو في حجر أمه
يخود بنفسه فأخذه النبي (صلم) فوضعه في حجره ثم قال
يا ابراهيم « انا لا نغنى عنك من الله شيئاً » ثم ذرفت عيناه ثم قال
يا ابراهيم « لولا أنه أمر حق ووعد صدق وان آخرنا سيلحق
أولنا لحزننا عليك حزناً هو أشد من هذا وانا بك يا ابراهيم
لحزونون تبكى العين ، ويحزن القلب ، ولا نقول ما يسخط الرب »



اللهم ارحم قومنا فانهم لا يعلمون كيف ينجلون وقار الموت ،
ولا ينعمون بهجة الحياة !!

الفاخرة في ٣٠ من يولييه سنة ١٩١٥

نظرة في الطريق

على هذه الطريق التي تقطعها قدما كل صباح ، ومن هذه المشاهد التي تجرى تحت نظرك كل يوم ، وفي واسع هذه الضوضاء التي يسبح فيها سمعك ، أيها السائر . اتدد وانظر ، واتعظ . فبين ذلك صحف حية منشورة بين يديك فيها ، لو تعلم ، حكم بالغة .

ما أرى في الطريق وما يجري فيه كأنه عبارة صارخة تقوم على كلمات شتى !

وما أكثر مفردات هذه العبارة : فيها العامل المكب على عمله ، والمتعطل الساكن الى كسله ، والمنعم التائه في نعيمه ، والبائس المصدوم في بؤسه ، وهذا الطاغى وذاك الباغي . وهذا المسرور وذاك المدحور ، وهذا الشاكي وذاك الباكي ، وهذا وذاك ،

كل واحد من مفردات هذه العبارة ، بل كل فرد من هذه الافراد الذين يرون أمامك إنما هو يمثل معنى من المعاني و « يلعب دوراً » من الأدوار في مسرح هذا الوجود .

هذا كلمة للعمل ، وذاك للكسل . هذا للشقاء وذاك للنعمة
هذا للخديعة ، وذاك للغرور ، وهذا للقوة ، والآخر للضعف
وهذا للحق . وهذا للباطل . وهلم جراً .

تلتئم هذه المفردات جميعاً لتتركب جملة واحدة بل هيكلًا
واحدًا معناه : حياتنا الاجتماعية .



إذا جاز لأهل البلاغة أن يحكموا على فصاحة الجملة بسلامة
الألفاظ وحسن التركيب فقد يجوز لأهل الاجتماع أن يحكموا
على رقي الجماعة بما تحمله أفرادها من تلك المعاني المختلفة .

في الجماعات الوضيعة تربي المفردات السقيمة ذات المعاني
الواهية فإذا رأيت الطريق تموج بأفراد هذا يمثل دور الكسل
وذاك دور اللثيم ، وهذا دور المنحط ، وذاك دور الخادع . وهذا
دور الدليل فقل ان هذه الجملة الاجتماعية علية لا ينشرح لها
الصدر ولا تجود الا بمعنى الحياة المنحطة .

وإذا رأيت في بلد ما ان الطريق تموج بأفراد تحمل النشاط
قلوبهم والجمال وجوههم ، والبشر محياهم ، والقوة أجسامهم

— ٩ —

والنظام أعمالهم ، فقل ان تلك الجملة الناطقة التي يحملها هذا
الطريق هي فصيحة بليغة ، تدل على رقى الجماعة

رقى الجماعة هو رقى أفرادها وعظمتها تكون في تعدد أساليب
هذا الرقى تعدداً يظهر في اختلاف المواهب السليمة للأفراد .

القاهرة في ٦ من أغسطس سنة ١٩١٥

رغيف الشفاء

بين الواقع والخيال

في الحياة ناس ممتعون يحويهم الوجود وهو كاره . يدنون
إلى النعيم من طرق يكره الله أن يسير فيها البشر الصالح لأنها
مسالك الأدنياء والأشرار ويقول أهل العبادة والتوكل بأن الله
لا يطرح البركة في عيش هؤلاء الناس وصدق السادة المتوكلون .
ان الرجل الذي آتيك بحديثه ، أيها القارئ ، هو شبهك
في نوعه الحيواني وأرجو أن تكون أعلا منه في إنسانيتك
وأرقى مطمحا .

عاش هذا الرجل حيناً من الدهر بين الناعمين ، يطعم كما
يطعمون من ألوان مختلفة ، وينام كما ينامون على لين الفراش ،
وينخلع الحرير ويلبس الحرير . وكان يشتغل قليلاً ويظفر من عمله
بأجر غير قليل وجاه جزيل وينال من هذا الجاه تحيات وافرات .
ظل على هذا الحال حتى تولاه مس سىء من حياة النعومة
التي ليست من حقه فأصبح شاحب اللون ، شحيم الأعضاء ،
أجش الصوت ، مرتجف القلب ، مضطرب الضمير .

هال الرجل أمر مصيبته ففزع إلى التداوى فجىء له بصفوة
الأطباء .

نصح له الطبيب بالملاهي ليستريض بأنوارها وحسانتها
وحسانها فلم يزد اللهو إلا سقماً على جسمه ، وسعيراً في نفسه .

نصح له الطبيب أن يتعدى البلاد ويحوز الشرق للغرب
وينعم هناك بأرض حيا الله رباها ، وجدد بهجتها ، فلم تزد بلاد
البهجة والنعيم إلا هماً .

وصف له الطبيب إكسير البحار ، وهواء الجبال ، وعصير
القلوب والأكباد . وصف له الطبيب ما وصف فلم يبق من
الأدوية ولم يذر ولكن ظل فيه الداء .

وبينما هو ذات يوم يفكر في حاله ، ملقى على مقعده ، إذ ساقه
النوم إلى عالمه فرأى فيما يرى النائم كأن الحائط قد انشقت
وظهر له من خلفها شيخ نوراني يكاد يكون وجهه كالشمس أو
كالقمر وسمع صوتاً ينادى بأن العلة لا تزول إلا بغذاء من رغيف
طاهر معجون بدم الناس ، بدم لا ينبع من جرح ، ولا يرشح
من مرض .

ذعر الرجل من هذه الرؤيا وضرب في الأرض يسأل كل
عالم بتأويل الأحلام حتى التقى بشيخ من أهل الله صالح قال له
أنا آتيك بتأويل رؤياك فاتبعني وسار به بعيداً بعيداً عن المدينة
وانتهيا إلى شجرة عجوز بارك الله في ظلها لمن يلجأ إليه من عملة
المزارع الواسعة القريبة إليها وجلسا يرقبان رجلاً عليه ثوب خلق
أزرق يعمل يجد في الأرض .

ولما كادت الشجرة تنتقل ظلها ، وتتوسط الشمس في
السما مال العامل عن عمله واتجه نحو الشجرة والعرق يتصبب
من جبينه واشراق الجهد الصالح يتألق على وجهه وانحى ناحية
في ظلها الواسع وأخرج من جعبة حقيرة رغفاناً تكاد تكون
سوداء ومعها نبات يؤكل ، ودعا الشيخ وزميله دعوة الكريم ،
فتقدم الشيخ إلى الطعام وأشار على زميله العليل باتباعه وأكلا
من طعام العامل وشربا من مائه .

شعر العليل بنوع من الرغبة في الطعام لم يكن يشعر به من
قبل وبدأ يفكر في أمر الحياة واختلاف جهد الناس فيها ونصيبهم
منها وأخذت تتسرب إلى فكره طائفة من الخواطر من شأنها

— ١٣ —

أن تكسر حدة الطمع وتحقر النعيم المكتسب من وراء الذلة
والدناءة، وتهدى إلى حياة الرضا، والبساطة، والحلال . وكان
في ذلك اليوم بدء الشفاء .

††
†† ††

أن رغيـف العامل الفلاح معجون بدمه وعرقه وبينما هو
يهيئه تنقض على كتفه غريبان من البشر، يحتلسون من لحمه الطاهر
طعاماً هنيئاً فيئن وهو صابر ولكن الله عدل شهيد يعطف على
الفقير المظلوم جزاء صبره ، ويصيب الغريبان بمرض في الجسم ،
ووخز في الضمير

شرقا ش في ٨ من اكتوبر سنة ١٩١٥

الشباب المدبر

والشعرة البيضاء

أيها القارىء الصديق الشاب

ان الفتى الذى التى عليك قوله كان من هؤلاء الذين أعزهم الله
بآية الشباب فقضى ربيع العمر بين لذة الحب ولذة الأمل ، ولذة
العمل ، ولبت يعدو فى ذلك السبيل الزاهى حتى اشتعلت فى
رأسه شعرة بيضاء أدرك بها أنه قطع فى سبيل الله ما قطع ، وأنه
كاد يدخل فى مسلك قفر من نعمة الصبا ، ونعيم الغزل .

ظن الفتى أن تلك الشعرة هى نذير كاذب بفوات الشباب ، وزعم
أنها فوتت على نفسها غذاءها من لحمه ودمه فايضت نخطبها قائلاً :
« ليس لك أن تزعجنى أيتها الشعرة ، فما زلت بحمد الله فتياً
أحب زهرة الربيع الوليدة العطرة ، وأطرب من حديث الغانيات
وأصبو لذكر كل عمل مجيد .

ما زلت محباً للحياة أعانقها إجلالاً لما فيها من عظمة ، وحرصاً
على ما تظهر به من جمال ، فيغشاني الليل ويجود بفترة هادئة
تقبل على فيها طوائف الرغبات واذا بخل الدهر برغبة جاد الليل
لنا عنها يجميل العزاء .

يلحق الليل النهار فيشرق وجه الوجود وتلقى شمس الصباح
في نفسى قذيفة من القوة أتعقب بها كل عمل صالح . وهكذا
اليوم الصالح ان اغلق في الليل عن عزاء فانه يفتح مع الفجر على
نشاط ورجاء .

هذه يبنى أيتها الشعرة البيضاء ، محشوة بالعافية وهائنان قدماى
تحملانى على الأرض غير وجلتين ولا متخلختين ، وهذا سمعى
ليس به وقر ، وهذا بصرى حديدا ، فاذا كنت أيتها الشعرة نذير
الهرم ، والهرم نذير الموت فاجعل اللهم يوم لقائى لك فى أيام الشباب
فلقد نعمت به ولقد أحببته ووددت لو ألقاك اللهم فتياً .

يقولون إن فى تلك الكواكب البراقة أودية وظلالا فأى فتاة
من أهل السماء تبتظرنى اليوم تحت كروم هذا النجم اللامع
لأقبلها وأشرب من عصير تلك الكروم واستأنف الحب فى عليين .
على رأى من الملائكة والمطهرين »

*
* *

وأسفاه لو فات الشباب ولم تقض من الشباب اربته .
أن الحياة جميلة وخير ما فى الحياة ربيعها وخير الربيع ما انقضى
بين الحب والعمل والأمل .

الدعوات

على ذكر الحرب

لأهل القرى أصوات أجهر من أصوات المتحضرين وربما كان ذلك لأن صدور القرويين هي أقدر على دفع الهواء وهزه بقوة، أو لأن هواء القرية غير ممزق بالحركات المختلفة التي تقوم عليها المدينة، أو لأنه بليل برطوبة النبت الغض والحقول العطرة، أو من هذه الأسباب جميعاً : ولقد طوح النوم عنى صوت علا غير بعيد من نافذة غرفتي يدعوا لآخر بالبركات. وبمقدار ما آلتى أن أتخلى عن راحة كنت في حاجة شديدة إليها سرني أن استقبل الصباح على صوت امرئ من الأنس يعني الخير لأخيه. أثار ذلك الحادث في نفسى خواطر شتى تطوف حول الدعوات وتجر الى البحث في ماهية الأمانى، وما ينجم من الشعور بالضعف عند عدم نيلها وما يكون من الاستنجاد بقوى عظمى تدعن لها قلوب الناس يوم تظل عقولهم وقدرتهم قاصرة عن إدراك ما يطمع العلم في كشف أسبابه وغير ذلك من المسائل التي يطرحها أهل العلم للتقريب.

وقد يكون للسادة رجال الدين آراء في تلك المطالب التي يوجهها العبد الى رب حكيم قدير إن شاء ردها وإن شاء لقيها بقبول .

لست اليوم أبحث في الدعوات من سبيل السادة أهل العلم أو من وجهة السادة أهل الدين وحسبي أنها نزعات فطرية موجودة في البشر منذ علم للبشر تاريخ . يسجل القلب تلك النزعات ثم يرفعها اللسان نحو ملكوت مسير الأمور ومصرف الأحوال .

ولقد كان الناس قديماً يوجهون دعواتهم عند رحاب انصاب معظمة ، أو أرباب مكرمة ، ويقول المتدينون إن الله يتقبل الدعوات اذا صدرت عن قلوب طاهرة ليس فيها غل ولا دنس .

كم في الأرض من دعوة رفعت عن لسان والد يطلب الخير لذريته ، أو نبي يطلب الغفران لملته ، أو حاكم ينشد التوفيق لأئمة ، فهل من دعوة رفعت الى الله من قلب نقي ليصير السلم عاماً والنار سلاماً



يقولون أن بعد الشدة الرخاء ولقد شهدنا شعوباً غرس الله بهم زرعاً ، وشاد بهم عمراناً وأقام لهم مجدداً فخل بهم القضاء ،

— ١٨ —

وجرت في أوديتهم الدماء، وكم من قلب يرجو لو وضعت الحرب
أوزارها فالله لا يستجيب؟ ألأن قلوب البشر لم تزل غير نقية
لا يرضيه دعواتها؟

✧ ✧
تداول الدعوات بين الناس نذير بأن القلوب تنهياً للحب،
ومتى ساد الحب القلوب ساد الأرض السلام.

شرقا في ١٢ من نوفمبر سنة ١٩١٥

الكأس المرة

قرأت في صحيفة من صحائفه ما يأتى :

« كان الحر فى ذلك اليوم شديداً . والسائر فى انحاء المدينة يستر وجهه من هبوب ريح سخينة محملة رمالاً مصفرة يخشى الصدر أن يصيبه أذاها فيستنشق نصيبه من الهواء بتؤدة وأناة وكان الناس يحاربون هذا الوجود الشاق على الأجسام باستمرار الثلجات لترطيب دماهم ترطيباً . ولما آذن النهار بالانصراف كأن ملائكة فى السماء خلطت أنفاسها الطيبة فى ذلك الجو فطفيء لهيبه شيئاً فشيئاً وترك القوم مضاجعهم الى القهوات يستقبلون ليلة حلوة من ليالى القاهرة .

خرجت الى القهوة فى بدء المساء وكنت أكاد لا أجد لنفسى مكاناً لو فرة الجالسين فاتحيت جانباً بين ذلك الجمع وكأنهم كانوا من الذين لم تحل بينهم هموم الأيام وصروفها وبين ساعة سرور تقضى فى لذة الشراب .

الجمعة صفراء ، مرغية ، تقية ، خالصة ينم عن برودتها بخار الماء المحيط بزجاج الكأس ، ونسيم الليل المنعش يحمل رائحة حبها

الخمرية إلى المشام ليثير رغبة الشارين ، ونور الغاز شديد يظهر
صفاء تلك الكؤوس المرصوفة صفاً صفاً والساقون يروحون
سراعا بأكواب فارغة ويعودون بها ملاءى ، والبؤساء من صغار
الباعة أو السائلين ينسلون دون أن يشعر بهم أحد لأن السقاة
شغلوا بعملهم والناعمين يلهون بنعيمهم وكأن هؤلاء البؤساء كانوا
رسائل من عند الله يذكرون بتفاوت حظوظ الناس .

لفت نظري رجل بأس واهن القوى . نحيل الجسم ضعيف
البصر ، يحمل على كتفه العانية فتاة توسدته فنامت وأسدل
شعرها أصفر هماً جيللاً على كتفيها الصغيرتين .

تنام الطفلة في الساعة التي من حق الطفل فيها أن ينام على
فراش لين هادىء ولكن المنكودة تنام في غير مأوى . يطوف
بها والدها المجرم الجانى حيث فصلها من دمائه المعذبة لتنال
نصيبها من الشقاء . لا أدري لماذا يلد الناس إذا لم يكن لأولادهم
سهم في النوم الهنىء ، ولا في الطعام المرئى !

نظرت الى الرجل فاضرب رأسى بأفكار متناقضة وفؤادى
بعاطفة ليست محدودة ولا مضبوطة ، فكان يدفعنى عامل من

الشفقة والحنان ويهزنى عامل آخر من القسوة والظلم ولربما
كان فى القسوة والظلم كيان هذا الوجود .

نظرت الى الرجل نظرة متمرة ورفعت الكأس فى يدى
وكأنى كنت أتخيل نفسى جندياً مظفراً فى معمة كبيرة هائلة
قد نسى من لذة النصر ماتحت بصره من هول الموقف
وبشاعة المنظر .

رفعت الكأس لأشربها فى صحة الظافرين أمام من لا يجد
خبزاً ، أشربها صرفة أمام من يتجرع الذل والهوان ، ولكن
فرائصى كادت ترتعد من بقايا شفقة كانت فى نفسى ولم يكن
ما التى من عسف العيش ، وظلم الوجود ، ومر الحياة لينزعها
من ذلك الفؤاد .

شربت الكأس دفعة واحدة على أن مذاقها قد كان
وأأسفاه مرّاً . . . »

القاهرة فى ٩ من يونيه سنة ١٩١٥

على مسرح الادارة

قرأت في صحيفة من الصحف ما يأتى :

« من زمن غير بعيد وأنا أمثل دورى على مسرح أعمال الادارة وكنت قبل ذلك أشتغل بالزراع ، وأدير شؤون فئة من العمال يسعون تحت عني فى أعداد الأرض ، وتهيتها ، لتنتب رزقنا جميعاً . كنت أساجلهم الحديث وكأني بهؤلاء الفقراء لا شكاة لهم من الفقر ، ولا يتذمرون منه لأنهم يملكون متاعاً طيباً غير المال بجانب رزقهم الضئيل ، يملكون الهواء الطلق ، ورثتين واسعتين تخرج قهقهة الضحك عالية وتهز الهواء هزاً . يملكون زهر الربيع ، ودر النداء ، ونور الفجر المنبثق ، وجمال الأصل ، وهدآت الليل الساكن ، وكواكب الصيف الريفى الجميل .

كنت قرير النفس بأعمال الحقول ، وكادت تنسينى الحياة الريفية الرتيبة ، التى قل ما يتناولها التعبير كثيراً ، مناظر العوز للفقيه الحفاشى بين سكان المدينة ، على اننى لما عدت إلى القاهرة نظرت الحبي بينهم وساقى القضاء المحتوم إلى عمل عام بماطفة ليست محلصب الادارة تبينت إذ ذاك صورة جديدة

من أحوال البشر: صورة التنافس في السلطة ، والمكر السيئ ،
والمكر الحمود ، والخديعة ، والحسد ، والجبن ، والتشفي ،
والنفاق ، والرياء وغير ذلك من صفات تلصق بالجماعات التي
تتعدد فيها الوظائف وتتفاوت فيها مراتب الموظفين .

بين هذه الوجوه كنت أرى الوقت بعد الوقت وجهاً شاحباً
خجولاً ، وجللاً ، يلعب به الرجاء ، ويصرعه اليأس . وجه الفقير
يلتمس عملاً لئلا يكل خبزاً ، ويحمل ملتئمسه على قرطاس جميل
بخط جميل واهماً أن جمال الطلب وسيلة لقبوله .

كنت في بدء حياتي الادارية كثير العناية بهذه الطلبات
أقرأها واستعيد قراءتها . وأحملها مسرعاً الى رؤسائي آملاً أن
تصيب قبولاً فأحمل البشرى عن ارتياح وسرور .

تكررت هذه الطلبات ، وتكرر رفضها من الرؤساء ،
وألفت شيئاً فشيئاً قساوة هذا الرفض ، وبعد أن كنت أحمله
إلى أربابه متلطفاً متأسفاً أصبحت أحمله اليهم كما أحمل أى نبأ
لا يتحرك له الفؤاد .

سافر رؤسائي إلى مصايفهم وزودوني ضمناً بـ
إلى بعض الأعمال ، فمن أيام تناولت كتار

الذين يتضون نهارهم في البحث عن عمل صغير في المصالح أو كتابة خطابات لرؤسائها يسترحمون ويتظلمون اليهم من الفقر وحمل العائلة .

كان لهذا الكتاب ميزة تظهره على أمثاله ، كان مرسوماً على ورقة نزع من كراسة تلميذ في بدء سنى دراسته ، والورقة مصفرة والمداد الذي كتب به كأنه مداد طفل طالما خلطه الطفل بالماء . واليد التي خطته هي يد عانية لا تجيد رسم الحروف والقلم الذي صاغه لا يحسن صوغ الجمل . ليس في الخطاب أكثر من المعنى الذي تعودنا وعيه من مثل ذلك الكتاب :

الرجل فقير وذو عائلة ويلتمس من مراحم صاحب السعادة عملاً يأكل منه الخبز وهو يدعو لصاحب السعادة عند الله بطول العمر .

كان ذلك الخطاب في مجموعه كالامل الشاحب الضعيف وضعته أمامى وغمست الريشة في الحبر الأحمر ورسمت عليه كلمة الالهال التي علمنيها أصحاب السعادة الرؤساء !

رسمت الكلمة بغير رفق فتمزق من الخطاب شيء وثرث الريشة قطيرات حمراء كأنها دم الفقير انثر من قلب ممزق .

— ٢٥ —

ناديت الكاتب ليحمل هذا الأمل الضعيف المهزوم .
ناديته ليحمله ويقبره في اضمامة الأوراق المهمة مع أشباهه
ولعله هناك يتضام إليها ليشكو إلى الله حال صاحبه فان
الله رحيم ولكنه نزع الرحمة من نظام الأعمال الاجتماعية فليست
الرحمة من قواعدها .

القاهرة في ٢٣ من يونيه سنة ١٩١٦

واسع الرحمة

سرت من نحو ثلاثة أيام في جنازة متوفاة على دين المسيح ابن مريم ، وقد ألفت كما ألف غيرى رأى جنازات النصارى فليست غريبة عندى الرسوم التى يتخذونها فى تشييع أمواتهم ولكن كانت تلك هى المرة الأولى التى ذهبت فيها الى مقابرهم فى تشييع راحل عن هذه الدنيا .

رأيت فى قبورهم حسن النظام وتصوير الأبدية فى صورة تجمع الى جلال الموت جمال السكون . على أن ذلك لم يكن ليغرب عني فإن الرقى المدنى الذى اختلطت به حياة الفرنج لا بد أن يكون له أثر فى جميع نظمهم : فى الحياة وعند المات .

وصل المشيعون إلى المقبرة . وهناك خف وطؤهم ، وخشعت أبصارهم ونزلت عليهم السكينة وحيًا من عظمة الموت بل من جلال الأبدية وعظة الفناء .

لفت نظرى بين هذه المناظر المرهوبة قوم من السائلين المسلمين ينتظرون عند الباب العطف والرحمة .

لقد أحسن هؤلاء البائسون فى اختيارهم تلك المواقف عند أبواب القبور فإن المرء بعد زيارته هاتيك المواطن المحترمة يخفض

من كبريائه ويرق قلبه ، ويصبح رؤوفا بالضعيف ، خانا على
السائل المحروم .

لفت نظرى ذلك لأن عاطفة الرحمة تمثلت لى فى هذا المكان
وفى تلك الساعة فى أجمل صورة يجب أن تكون عليها الرحمة .
عاطفة تخرج من جانب القلب فى سبيل الله إلى كل عاجز
ضعيف . عاطفة طاهرة لا تبصر الا الضعف والحرمان .

رأيت على باب مقبرة النصارى سائلين من المسامين . وما
أحسبني رأيت قط فى مقابر المسامين مسيحياً يطلب الاحسان .
ياليت شعرى : أراجع ذلك إلى طبائع الجماعتين فى فهم
معنى الرحمة ، وفى الجود بها أم أحسن المسامون إذ فهموا أن
الرحمة لا دين لها فأصبحوا يلتمسونها عند مقابر من ليسوا على
دينهم ، وأساء النصارى الفهم فزعموا أن الرحمة لا تخرج خالصة
لهم من بين مقابر المسامين فلم يطلبوها لدى أبوابها ؟

أما أن للناس أن يفهموا أن فى الصدور عواطف تود لو تعيش
فوق المذاهب والاختلافات ، وأن أحق العواطف بالرعاية فى
نزعاتها الحرة عاطفة الرحمة . كتبها الله على نفسه وهو واسعها
لعباده جميعاً .

ساعة عبادة

في طريق الرمل دقت سم الترام مع أمها وأظن أنها تسكن في «حالة قيصر»، سعدت حيث يصعد الناس على ظهر المركبة رغبة في الهواء الجارى وتسريحاً للنظر ينطلق في امتدادات الأفق المتصل ببحر الروم . استقلت الفتاة بمجلس كان من الحق أن يشغله اثنان واستباححت لنفسها أن تستأثر بالمكان وحدها لقلّة الذين كانوا في المركبة وقتئذ .

جلست بعزل متجهة الى البحر، متخذة سياج المركبة مسنداً لظهرها ووضعت ذراعيها على متكأ المقعد ثم أسندت رأسها على ذلك المعصم الجميل النحيل . شخصت الفتاة بعينها السوداوين الطويلي الهديين الى الأفق المتدلى على البحر وانفجرت شفتاها الورديتان عن ابتسامة تكاد تتفتق كما تتفتق الأحكام في أول تحولها الى زهر نضير وغابت بذهنها عن الناس كأنها كانت تخاطب خلقاً في الملكوت الأعلى . وكان النسيم يعبث بخصل شعرها الطويل المرسل الأسود فيطوحه برفق الى صدرها ثم ينزعه برفق عن هذا الصدر المشرق المزدان بصليب ذهبي وهاج متصل بسلسلة ذهبية تطوق عنقاً لا يعيبه طول وقد تجاوز حد القصر .

اتجهت حيث يقع بصرى على هذا الخلق الفتان . لم أختلس
 النظرات اختلاسا وإنما رأيت أن أشبعها حسنا غير مكثرت بما
 قد يأخذنى به الناس من تلك النظرات لأنى كنت حينئذ طاهر
 النية أمام الله فلا يخجلنى أن أتمتع متاعاً طاهراً بجمال فتاة لا تكاد
 تبلغ الرابعة عشرة . الفتاة ذات سمرة تبعدها وأهلها أن يكونوا من
 أهل الشمال ، والفتاة صغيرة السن لم تتعلم من الناس بعد أن
 الجمال كثيراً ما يتخذ وسيلة للخيلاء والغرور ، والفتاة لم تتعلم بعد
 من الغزل إلا ما علمتها الطبيعة من الميل الى كل شىء جميل
 فكأنها كانت تغازل البحر والنسيم أو كأنها كانت تداعب
 الأملاك الذين يخفون صورهم عن خيالنا المنطفىء ويظهرونها في
 رؤوس الأطفال فتراهم يسرون ويسمون لنغم مريح يسمعون
 ولا نسمعه . الفتاة جميلة جميلة !!! على المقعد الجنيب لمقعدى
 كان يجلس قس شيخ بمسوحه السوداء ويده كتاب من تلك
 الكتب المنزلة وكان القس يقطع سطره صامتاً متعبداً .
 ليت شعرى . أى العبادات كانت الى الله أقرب يا صاحبي
 القس ؟ أعبادة رجل يرى الله في الكتاب ! أم عبادة من كان
 يعجب بالمصور الاكبر في صورة بدیعة صورها ؟

شكوى الى الله

كثيراً ما تكيدنى الأيام والليالى فتحول بينى وبين كل عمل أتسلى به وتصرف الى نفسى شجراً والى رأسى طائفة من الأفكار لا أسيغ معها القراءة . ولا يلذلى معها الحديث . عند ذلك أفر من سكون الدار فراراً ، وأفر من وجوه الإخوان الى حيث تقودنى قدمائى فى الأسواق فأقف أمام الحوانيت أتسلى بالنظر فيها الى ما يباع ويشترى ، واليوم وقفت عند حانوت وراق بالأزبكية ، وطلبت الى البائع الفتى أن يعرض علىّ صنفاً من البطاقات عليه رسم الوجوه الحسان .

لبى البائع الطلب وقدم لى منها عدداً وفيراً فأريت على واحدة رسم جندي يقبل فتاة جميلة وكتب تحت الصورة : من وهب حياته للمجد حق له أن يسعد بقبلة من تلك الشفاه .

وعلى ثانية رسم جندي ييسم لفتاة تودعه وكتب تحت الصورة : سأخضع العدو كما أخضعت قلبك .

ورأيت على ثالثة رسم فتاة وفتى تدل سحنتهما على اختلاف بينهما فى الجنس . فى شمال الفتاة زهرة وفى يمينها عين الفتى

— ٣١ —

وكتب تحت الصورة : كما اتحدت أوطاننا نتحد على الحب
طول الحياة .

ثم رأيت على رابعة صورة زوج تقدم لزوجها الجندي هدية
عيد الفصح من حلواء وزهر وكتب تحتها : هذه الحلواء وهذا
الزهر الذى يباركه الله فى عيده أرجو أن يكون من شأنه أن
يرفع مجدك ، ويبقى لى قلبك .

أخذت أقلب البطاقات واحدة بعد واحدة وفى داخل النفس
أنة تنفر من الحشرات فتمزق الفؤاد . تمزيقاً وفى العين دمة
تترقق من الذكرى ويعنعها الحياء من السقوط .

أخذت أقلب البطاقات واحدة بعد واحدة وأقول فى نفسى
أى بطاقة يكون فيها العزاء لمن أصبح لا يجد حبيباً يئته كلمة
الحب ، ومن لا زوج له تشاركه باخلاص فى هموم الحياة ، ومن
هو من جنس قد تغمطه حقه الأجناس ، ومن ليس له حول
يدفع عن وطنه به الأذى ؟

يا صاحب الخانوت يا صاحبي هل من بطاقة ترسم عليها
السماء دليلاً للعزة الآلهية ويكتب تحتها : الى الله يرسلها من تملا
نفسه الشكوى ؟

الفاخرة فى ٢٤ من اغسطس سنة ١٩١٧

يمين رولان

أرأيت إذ تمر في أحياء المدينة الكبرى متسعاً من الأرض
عليه أكوام من الرمل، وألواح من الحديد والخشب، وأكداس
من الحجر والجير، وعليه ما تعلم وما لا تعلم من المواد ومن آلات
التشييد والتعمير؟

تلك المواد وتلك الآلات أكثر ما يستخدمها أهل المعمار
من مهندسى الغربيين أمثال رولان وغيره ممن يعيشون بيننا .
أرأيت هناك آلة يحركها البخار مسلطة على ذراع من الصلب
كأنه ذراع النمرود وهل رأيت هذا الذراع العاتى الجبار يرفع من
الأرض كتلة حديدية ضخمة فاذا قطع بها الى السماء سبيلاً تركها
تهوى ، فترتعد حينئذ فرائص البطحاء حتى اذا بلغت الكتلة
مقرها اهتزت منها جوانب الأرض اهتزازاً ، واندكت منها دكاً ،
وكادت من هولها تمور ؟

تلك الآلات وذلك الذراع هو ما أعنى به : « يمين رولان »
وان شئت فسمه يمين المعمار الغربى .

✱
✱

طالما وقفنى تلك العدد مع نفر من الضارين فى السبيل .

طالما وقفت لأشهد جبروتها ، وطالما أخذت الخواطر تنعطف
على رأسى ، وترسل معها على وجهى وشفتى ابتسامة وادعة بريئة
من كل ذنب .

أغداً — أقول فى نفسى — يصبح ذلك المتسع من الأرض
الذى تضرب فيه أثقال الحديد ، وتحفر فيه فؤوس الفعلة ، وتخطه
بنان المعمار . أغداً يصبح ذلك الفضاء عامراً فيرتفع فيه البيت
الشامخ العديد الطبقات ، العديد الشرفات ؟

أغداً تطمئن فى تلك الدور الآباء والأمهات والبنون والبنات
والعروس وعروسه ، والحبيب والحبيب ، لهم فيها مسكن ونعيم
وقد أمر من وراء حجراتها واقطع طريقى فى طول أسوارها ولا
يصيبنى إلا ما شاء الله من هناء الطرف بالقصر المنيف والدار
الشاحنة ، وقد يفلت الى سمعى من إحدى نوافذه نعمة شادية ،
أو دقة عازف تطير من تحت أصبعه رنة ينشرح لها صدرى ،
ويرتاح لها قلبي ، وتجرى بها مهجتي ؟

وحقاً يا أخى ما هى إلا أيام معدودة حتى يستقيم البيت ،
ويتنفس العمار فى أرض كانت بالأمس خراباً وكل ذلك يرجع

أكثر الفضل فيه الى تلك الآلات التي جهزها العلم والتي
اصطلحت يني وبينك على أن نطلق عليها اسم « يمين رولان » .



إلا أنني لا أخفي عنك أيها الصديق القاريء، أنه على عجباني
بتلك العدد والأدوات ، ومع إكباري لكثير من مظاهر المدنية
الحديثة في تخطيط المدن وتصوير المنازل، فان حسرة تستولي على
نفسى عند ما تضرب « يمين رولان » على وجه أرضنا من غير
رحمة ولا اشفاق قزول من آثارها رسوم مدننا، وتضمحل
أشكال هندستنا، وتتحول أنظمة بيوتنا، وتتغير أساليب عيشنا
وعاداتنا الخلقية، وكثيراً ما تتناسب العادات والأحوال النفسية
مع ظروف المكان والمحيط .

واحسرتاه على منازلنا التي نبتت فيها طبائع الكرم ، وشيم
الوداعة ، تستحيل الى بيوت غريبة تملأها آلاف من الناس
كأنها ثكنات الجنود ، أو مكامن النمل العديد .
واحسرتاه على تلك « المناظر » التي كان يغشاها أجدادنا
وآباؤنا فيصرفون فيها سمرهم ، وينشرون في جوها أنسهم ويفيض
في جوانبها جودهم المطبوع ، وحسبهم المرفوع .

واحسرتاه على تلك الدور ذات « الحيشان » والغرف الوسيعة
التي لا تضيق فيها الصدور وينطلق فيها المحيا بالبشر والايناس .
واحسرتاه على كثير من المعالم الشرقية يطغى عليها سيل الغرب
الجارف فيغرقها وكم فيها من جمال !

*
* *

إن في مظاهر عيشنا ومدنيتنا ، الطيب الصالح فلنستمد له
من مدينة الغرب دون أن نضيعه ولنعمل على أن لا تستبد بنا
المدنية الغربية في كل أمر ، ولنعمل على أن تترفق بنا
« يمين رولان » العاتية .

القاهرة في ٣ من نوفمبر سنة ١٩٢٢

القهوة والبيت

نبهني صديق الى قهوة في إحدى الطرق التي يكثرفيها غدوى ورواحى . لم تبلغ تلك القهوة من العمر إلا أياماً . عليها نضرة الشباب ، وعليها بهجة الجديد ، وهى مغمورة فى لجج من الأنوار ، ويفشاها الناس فيعبرونها كما يعمر الجامعات طلاب العلم المخلصون .

تواجه القهوة حارة هادئة تجدد فى أقصاها مساكن لم يرفع الغنى أهلها الى طبقات الدور الشائخة ولم ينزل بهم الفقر الى تلك الموائل التي تبحثو الى الأرض فتكاد تغور فيها غوراً .

وقفت ذات ليلة فى الطريق البرزخ الموصلة بين القهوة وبين الحارة بحيث أشعر بالسكون الشامل لتلك المنازل وأشهد عن بعد من القهوة لآلىء الأضواء وما يجرى فيها من مظاهر الحركة والمرج .

وكأن الحركة والأضواء التي كانت تقلت الى من تلك القهوة العامرة كلمات فيها معنى اللوم ، والازدراء ، والعتب ، والتشفي ، والمفاخرة . كأن القهوة فى هرجها وأفراحها تناجى البيوت فى

سكونها وأساها وكأن البيوت كانت تتوجع من ذلك الحديث وتئن
إيه أيتها البيوت . . .

انك خلوت من الحياة المؤنسة التي تنشرها في رحابك الزوجة
الصالحة والابن النجيب . وانك خلوت من العطف والتراحم
الذي يتولد من تضام الأسرة ومودة العائلة . وانك خلوت من
روح السرور الذي ينتشر من أنس الأصدقاء والأصدقاء .

انك لا تستكملين أسباب الراحة والرفاهية . أين منك ضوء
درى ؟ . أين منك منافذ تستعطف عليك الهواء العليل ؟ أين
منك صور وفنون تتخذين منها زينة وحلية ؟ . أين منك زرابي
مبشوة وطنافس مفروشة ؟ . . .

ان جوى مشبع بالسرور وجوك مشبع باثقال الحزن والنكد
انى مضيئة باسمه وأنت مظلمة قائمة . فانتضى على عروشك .
إيه أيتها البيوت ! . . .

*
* *

كأنى كنت أشعر عندئذ ان منافذ بيوتنا المسكينة الحزينة
عيون مقرحة من البكاء ناظرة الى تلك القهوات شاكية الى الله
من مر الألم وكأن البيوت تقول :

تبا لك أيتها القهوات ! .. انك تجذبين الى أحضانك الخبيثة
أربابنا وفتياننا فيصرفون فيك قطعاً من الليل وجزءاً من النهار
يتبادلون فيك سمرهم وينفقون فيك أموالهم .

انك تأخذين اليك الزوج من زوجه ، والأب من بين بنيه ،
وتجعلين عرصاتنا خالية ، وأجوافنا خاوية .

على أنك أيتها القهوات إن كنت تفخرين علينا بقوم يعمرونك
ويتركوننا فكم يغشاك من خامل كسلان لا يرفعه بين الناس شرف
العمل وكم يغشاك من ماجن مستهتر دنىء لا تعمر به أرض ولا
تنبطك عليه دار . وكم يغشاك من وارث مضيع يأكل من
عمل الغير ويشرب من دمه !!

لا تغرلك علينا . ايه أيتها القهوات ...

يقولون من ينشئ مدرسة يغلق سجنًا ، وأقول من ينشئ
قهوة يخرب بيوتًا

يا قوم لا تعمرُوا القهوات وتهدموا البيوت . وإن أردتم بناء
عجد الوطن فأعمرُوا البيت ونظموا العائلة ...

القاهرة في ١٠ من نوفمبر سنة ١٩٢٢

فى ذكرى عام

للمرء أن يتسمع ما يخفق به قلبه ويقيد ما يمر من الخواطر
بوجدانه . وله أن يخفى منها ما شاء وله أن يعلن منها ما شاء ما دام
الناس لا يصيبهم أذى من سره ولا مكروه من جهره .
أقيد بعض ما اتصل بنفسى فى الساعة التى كانت برزخاً بين
العام الميلادى الذى رحل وذلك الآخر الذى حل .

غشيت قبل منتصف الليل دارى . والتحفت حرصاً على
الدفء بدثارى فى ساعة كان بردها على شديداً . وأخذت على
نفسى أن لا أضجع وأن لا أنام حتى يلفظ العام نفسه الأخير .
فاذكر له بالخير ما أحسن به إلى وأسأحه فيما أساء . ولكل راحل
إلى الله حق فى الذكرى وحق فى المغفرة .

جلست على مائدة كتابتى . وأخذت أعد بطاقات أكتب
عليها كلمات التهانيء والمجاملة . وأخذت أحصى الأسماء على قطعة
من الورق . فلما انتهيت من ذلك الاحصاء أعدت عليه النظر
تولانى خاطر مزعج اضطربت له النفس . وقد يزعج النفس الأليمة
ما قل كما يزعجها ما جل .

غدا أرسل لزيد تلك البطاقة . وفي غد يحمل البريد لخالد تلك الأخرى . وفي غد أغشى دار بكر لابسم في وجهه .

في غد يحصل كل ذلك ولكن كم من هؤلاء الذين أذكركم غدا لا يسعدني وجودهم ولا يشقيني غيابهم . ولا يسعدهم وجودي ولا يألون لفقدى . على أنى أجامل الناس كما يحاملونى ، وأخضع معهم لقوانين النفاق الاجتماعي كما يخضعون ... فتباً لأساليب الحياة ، تعلم الناس النفاق باسم الجميل والأدب .

وفي اليوم الذى أحى فيه من لا تسعدنى بسماتهم ولا خير لى ولهم فى تبادل التحيات ، يحول الزمان وصروف الدهر والغير بينى وبين من كانت تشرق لى بسماتهم ، ومن كان الله يجعل لى من دعواتهم ظفراً وسعادة . . . ان الحياة تقوم حقاً على معاندة الانسان .

تركت مائدة كتابتى وفتحت باباً لأصل بين غرفة نومي وغرفة عملى حتى يتسع المكان لسيرى وخطواتى التى يستفزنى اليها القلق ، ثم جعلت أدخن بشدة بين جيئة وذهاب فى مدى الغرفتين ، ثم استلقيت على كرسى كبير وشرعت أتسلى برؤية ما أدفعه فى جو الغرفة من دخان يذهب من صدرى ذرات متآلفة

مقاربة ثم ينتشر، ثم ينبسط، ثم يتلاشى في الجو كأنه لم يكن .
أخذت أتذكر في مكان الله الواسع أراضى أحبتها ونعمت
فيها حيناً . وتذكرت في زمان الله الواسع أياماً كالعسل قد
مضت وانقضت . وتذكرت من خلق الله الذي لا يحصى عدداً
أشباهاً تلاشت في ظلمات الثرى . تذكرت وتذكرت
وتذكرت كثيراً .

اذكرونا مثل ذكرانا لكم رب ذكرى قربت من نرجا
ثم أخذت أحاسب نفسي على زلاتها . وأزن أمامها آمالها .
وأبين في ذهني ، بل في غشاء قلبي ، بل في لحى وعظمى ما فعله
به الزمن ، وما رسمته عليه السنون .

وبينما أنا مستغرق في أمرى نهتني من غرفة أخرى دقائق
الساعة الكبيرة الى الالهة لوداع عام يفوت . . .

كأن دقائق الساعة كلمات يعدد بها العام المنصرم بعض
ما يذكره لنفسه من خير وشر . كان العام يقول في دقائقه الأخيرة
تن . . . سخرت من الغافلين حتى صحوا من الشدة والمحن ...
تن . . . أغريت الانسان بالذهب الوهاج قهافت على ناره
كما قهافت على النور الفراش . . .

تن . . . جعلت في الناس والأمم من يعملون لقتل الضعيف
ولو كان بريئاً .

تن . . . آويت اللص ، وسترت الخديعة . وكثيراً ما أعليت
الباطل على الحق . . .

تن . . . نفرت بين قلوب وأشعلت ضغائن وأثرت فتناً . . .
تن . . . صرفت الناس عن وجهك يا الله ليعمدوا إلى الاثرة
والشهوات . . .

تن . . . تمخضت بأراء وقدمت عظمات وعبراً . ولكن الناس
لا يفقهون . . .

تن . . . أحرقت أفئدة وأجريت دموعاً وشربت دماء . . .
تن . . . كم من صحيح أضعفت . . . وكم من عزيز أذلت . . .
وكم من عليل داويت . . .

تن . . . جردت أشجاراً من ورقها الأصفر الجاف . . .
وابدلتها منه ورقاً جديداً . . . وجعلت عليها زهراً نضيداً . . .
تن . . . صرفت العاشقين وهم في سكرات القبل عن مرارة
العيش . ثم أخذتهم أخذ الجبار فبدلت هناءهم تعساً . وبدلت
سعادتهم شقوة وجحماً . . .

— ٤٣ —

تن . . . لييك اللهم لييك . . .

وما كادت تضمحلّ في أذنى الرنة الأخيرة التي كانت تمام
الساعة الثانية عشرة من منتصف الليل لآخر شهر ديسمبر من
سنة ١٩٢٢ حتى تصعدت من قلبي زفرة وحارت في عيني دمعة .
عندئذ وجهت وجهي شطر السماء قائلاً :

أيّها الأزلية التي تجتمع فيها الأزمان المتوالية وتستقر عندها
الأحقاب المتتابة . وتتوحد في وحدتها جميع الخلائق . مغفرة
لما قدمنا من ذنوبنا وما أخرجنا . وصفاء لنفوسنا بما تصفوه به
نفوس الصالحين . . . اللهم آمين

القاهرة في ٥ من يناير سنة ١٩٢٣

فى نعيم الفن

... ثم ذهبت الى الملهى

وهناك عزف العازفون وتضاءلت الأنوار . وامتلأ المكان
نمماً . وتشبع الجو أريجاً .

ثم تطاوت الأعناق ، وتوجهت الأبصار . ثم عم السكوت ،
وحق الانصات فلا تسمع حسيماً .

ثم انحسر الستار عنهن . وكن نسوة كثيرات ومعهن رجال .
ثم انصبت الأضواء ذات الألوان من الثريات والآلات على تلك
الأجسام ليظهر كل جزء من أجزائها . وكل حد من حدودها
وتقاسيمها . وكأنهن كن يسبحن فى لحج من شمس وأنوار .

ولقد ذكروا الى خيراً كثيراً عن «الجوقة» الروسية الراقصة التى
وفدت الى مصر قريباً وكان الحق فيما ذكروا . وكنت أتمادى فى
التردد إلى الذهاب لأشهد هذا الفن خضوعاً لصوت كان يدب
فى نفسى ، وخضوعاً لما يستكن فى القلب من عادات وعقائد
قد نشأت من آدابنا القومية وأخلاقنا . فكنت أقول أذهب
إلى مجالس الرقص ، وطالما أحيت أن أكرم نفسى بمجالس

الكمال . وكنت أقول أأغشى مطارح الأهواء والمجون ، وطالما
ألفت أن أعرض نفسي للجد والعمل . على أنني علمت بعدئذ
أن في الله ما قد يدفع للجد ، وأن في مجالس المجون ما قد يستفز
للكمال ، وأن في المسارح ما قد يرفع الانسان من عالم الاشباح
إلى عالم الأرواح . وكذلك رأيت من رقص « أنا بافلوفا » وكذلك
ما سمعت من نغم . أحقاً كانوا من نسوة ورجال يذهبون ويحيئون
على مسرح التمثيل ؟ أم تلك طيور كانت تهادى ؟ أم غصون كانت
تتمايس ، أم تلك أزهار كانت تطوح بها النسيمات ؟ أم تلك اشارات
من السحر عامتها الملائكة للبشر فكانت توجه النفس الى التسبيح
والتقديس ؟ أم تلك اشارات إلى الملائكة الأعلی تدل على أن في الفن
الجميل معراجاً إلى الله .

تالله ما ألم بنفسى فحش عند ما تمايلت التمايلات واهتزت
القدود ، وتوردت الخدود .

وتالله ما ألم بها فحش عند ما درج الدارجون ووثب الواثبون .
وتالله ما ألم بها فحش عند ما تخاصر المتخاصرون ، والتفت
الغصون بالغصون . كان أذرعاً وأيدياً عند اشارتها تستخرج من
الفضاء حسناً كامناً فتثره الى الابصار فتشعر به القلوب . وكأن

أرجلاً تحجل على نغمات القيثارة والأعواد تقطع في الفضاء مسلماً
من الحسن تتبينه عند تلك الخطأ . ذلك كان رقصهم ولقد
أصبحت أستنكر أن أطلق اسم الرقص على تلك الحركات عند
• ما أتذكر مراقبنا التي رأيتها تدعو إلى الفجور، وتناجي النفوس
بالفحشاء والمنكر .

كانت الراقصة طيراً تمثل أجمل ما على الطير . وكانت الراقصة
زهراً تمثل خير ما تتلون به الزهور وتتشكل به الورود . بل كانت
الراقصة خفة ، ورشاقة . بل كانت الراقصة نسيماً .

أظن أن في حركة الطير ، وفي صورة الزهر ، وفي هبة
النسيم ، وفي ملاحظة الرشاقة ، ما يدعو إلى البغي والفحشاء ؟
كلا . والله ما مر بنفسى فحش فان في جمال الفن ما يسمو بالنفس
عن وساوس السوء وطالما قيد الجمال نفوس الناظرين عنده يكله
المقدس فلا يعرفون عنده لغواً ولا كذباً ولكنهم يعبدون
وقد يعشقون

خفى وارقصى ياراقصة الروس وعلمينا من تلك الحركات التي
تدعو للعبادة والتقى . إن الله هو ذلك الفنان الأعظم .

العيش الحقيق والعيش الكبير

ليست الحياة ملهى تتوجه فيه بأبصارنا إلى مسرحه الواسع
لنشهد أدوار الممثلين . انما الحياة تدعونا لأن نمثل كل منا دوره
ويقوم بنصيبه فى روايتها التى تتعدد فصولها ما تعددت الذرارى
وما تعاقبت الأجيال .

من الناس من يتهافون على الخير الذى يصيب عشيرتهم
وأمتهم من غير أن يكون لهم فى جلب ذلك الخير نصيب ،
ومن غير أن يدفعوا فى مشراه ثمنًا . وأنهم كذلك قد يتوقنون
الشر إذا نزل بالجماعة التى يعيشون فيها ، بل قد يبالغون فى
سبيل الوقاية وما كانوا ليتنبهوا إلى الشر لولا ان جاءهم بذلك نبأ
من غيرهم . ومثل هؤلاء الناس مثل الرجل الخامل فى القافلة
يقطع معها الصحراء كيفما تسير حتى إذا بلغت القافلة ماء بعد
جهد وعناء ، أخذ ذلك الخامل يروى ظمأه ويسبغ الماء عذبا
فراثا كما يسيغه من أرشد اليه وأتعب النفس للحصول عليه .

اننا نعيش فى حياة اجتماعية نحتفى بنظمها وتنعم بخيراتها
وتكون من عناصرها ولم تكن تلك الحياة الاجتماعية من عمل

فرد معين أو من عمل ظرف معين . ولكنها من عمل الجماعة في أجزائها وفي كليتها ، ومن عمل كل ظرف يحيط بالجماعة في غابرها وحاضرها وسيرها . وعلى ذلك فقد يكون من العدل أن نرد بجهودنا وأعمالنا إلى تلك الجماعة ثمن ما يصيبنا من حياتها ونظمها .

وفي الحق انها حياة حقيرة تلك الحياة التي يظهر فيها الفرد مستفيداً من كل شيء دون أن يفيد . متأثراً بكل شيء دون أن يؤثر . منفعلاً بكل شيء دون أن يكون لبعض شؤون الحياة فاعلاً . انها حياة حقيرة تشبه حياة الحيوان الدنيء أو النبات الطفيلي .

لكن للانسان حياة أعلى من ذلك واكبر . لأن للانسان عقلاً وإرادة . فيستطيع بالعقل أن يجعل للحياة قصداً يسير اليه وأن يرسم لحياته نموذجاً ومثالاً حسناً . وانه بالارادة قد يوجه جهوده إلى الوصول لقصده ، ولتحقيق ما رسمه لنفسه من مثال حسن نعيش في بيئة مكونة من مخلفات من سبقونا . وفيها أعمال لمن عاصرونا . ولقد يكون لنا من مخلفات هؤلاء وأعمال هؤلاء ما نستفيد منه ونحمدهم عليه . وقد يكون لنا كذلك من مخلفات هؤلاء وأعمال هؤلاء ما فيه لنا تمس وشقوة . أفنقصر هممتنا على الحمد تارة وعلى الذم أخرى ! . . .

يحركنى لمعالجة هذا الموضوع أن أرى فئة من الناس من مواطنينا لا هم لهم إلا أن يستفيدوا لانفسهم من العيش دون أن يحاسبوا ضمائرهم فيفكروا فى مصلحة الجماعة ويتذكروا أن ما يصيبهم من خير كانت الجماعة منشأه وما قد يصيبهم من سوء قد تكون الجماعة مصدره . ان الانسان الرشيد مكلف فى كلتا الحالتين أن يعمل لتمكين الخير، أولدرء الشر .

لقد أكره الجامد الذى يحرص على ما ألفه من حياة فينظر فيما خلفه ، ويقلب النظر فيما حوله ولا يضرب ببصره فيما يمكن أن يكون امامه فى الطريق . ذلك هو أعمى النفس وأعمى القواد .

ولقد لا أحب الذى يذهب به خياله الطائش فيترك سبيل خير معروف لسبيل قد يتوهم فيه خيراً كبيراً . ومثله مثل الكاب الطماع الذى عبر النهر بقطعة من اللحم فرأى خيال اللحم فظن أن الخيال حقيقة وترك ما كان عنده لينال هذا الخيال فباء بالخسران .

أكره طريق الأول ولا أحب طريق الثانى . وانما انفض منهما الى نفسى ذلك الذى لا يجب من الحياة مثلاً يتناول

اليه . ولا يجب منها حالة يعمل على استبقائها . ذلك هو الطفيلي
الذى يكسب لنفسه من وراء كد الغير .

كن ناثراً ان شئت ولتكن الحياة فى نظرك تافهة مرذولة
فلا تريدها فى شئ . ، ولا تريد أن تستبقى من شؤونها شائناً ،
ولا تريد الا الهدم لما نظنه لا يصلح إلا للهدم .

وكن محافظاً جامداً ان شئت . تريد أن تحيا على ما وجدت
نفسك عليه . لانك ترى الخير كل الخير فى حياتك ، فتحارب
كل هدام وتقف فى وجه كل جديد لانك لا ترى خيراً فى
الهدم ولا ترى خيراً فى الجديد . ولكن حذار أن تكون طفيلياً
تربك الحياة فتأخذ منها دون أن تؤدى إليها . واعلم أن حياة
ذات قصد تعتمد على الفكر لهى شريفة لنسبتها للفكر والقصد
والعمل . وان حياة لا قصد لها الا الانانية ولا يوجهها فكر من
الأفكار لهى حياة منحطة حقيرة . واعلم أن خير العيش أن
تعرف أن الحياة حق وان التقدم المعقول حق ، وانه من الواجب
عليك أن تشترك بشئ من جهودك فى هذا التقدم المعقول .
بذلك تدخل فى عيش الأبرار ، وقد تتوصل منه إلى عيش العظماء
والأطهار ، فاعمل لغيرك واعمل للتقدم دائماً

فى شم النسيم

... وكانت أكثر الحوانيت مغلقة فى ذلك اليوم . حتى
حانوت صاحبي الحلاق الايطالى، حتى حانوت الأرمنى بائع الدخان
الذى كنت أحسبه مفتوحاً فقصدت اليه لاتباع من بضاعته
ما اعتدت أن أشتري . وبينما أنا أضرب فى المناهج الوسطى فى
المدينة كنت أجد أحياناً جماعات من نساء الفرنجه ورجالهم ،
أو ممن تشبهوا بهم من الشرقيين يتأهبون لركوب المركبات
والسيارات ومعهم صناديق فيها طعام وشراب . وكانت رياح
خفيفة تهب أحياناً على وجهى فترى عليه مما كانت تحمله من
خلاصة الرمل والطمي . وكنت كلما تنحيت لأنجو من أثر العفر .
أو كلما أخرجت من جيبي خرقتى أمسح بها وجهى وعينى ، كنت
كثيراً ما أتذكر النيل والصحراء وكلاهما مصدر لهذا التراب .
وفى هذا التراب خير مصر من تبر ونبت ينعم به أهلها الزارعون ،
وينعم أهلها الحاصدون .

ولكن خاطراً قد تولد فى ذهنى من اجماع أهل الأديان
والأجناس المختلفة على أن يحتفلوا بيوم شم النسيم .

لقد رأيت مرة بينما كنت أسير خلف دار الأوبرا صبية من
للمى أعقاب السجاير يرتعون ويلعبون . فوقفت فى ناحية لأنظر
الى مرحهم وأضحك من هذه السذاجة الرثة الالعبة . . وبينما
كانوا فى شغلهم إذ أقبل عليهم صغير من مساحى الأحذية ووضع
صندوق عدته بجانب الجدار ونسى واجبه من السعى على الرزق
وأخذ يلعب هو الآخر مع نظرائه اللاعبين . وبعد قليل أقبل
عليهم صغير رومى ممن يتجرون بالكعك والحلوى فوضع بجانب
صندوق المساح سلة تجارته وحيا الصغار بابتسامة فحيوه بأحسن
منها ثم أخذ يشاطرهم أصناف اللعب من جرى ووثب . عندئذ
أيقنت أن للطبيعة حكماً أقوى من حكم الأجناس وأوضاع الحياة
وشؤونها . أنهم صبية نسوا أن وراءهم أعمالهم التى يكسبون منها
أقواتهم ، ونسوا أنهم من أجناس ولغات وديانات مختلفة . نسوا
كل ذلك فجمع الصبا وشئون الصبا فيما بينهم وعلى ذلك علا
صوت الطبيعة على صوت الآراء الاجتماعية التى طالما كان من
أمرها أن تفرق بين الناس وطالما كان من أمرها أن تدعوهم
للتناوب والشقاق .

وكان الأمر كذلك في شم النسيم . فقد اجتمع أهل مصر
على الاحتفال به فأغلق صاحبي الحلاق حانوته . وأغلق بائع الدخان
الأرمني حانوته كذلك واجتمع الفرنجه والنصارى والمسلمون
واليهود في مصر على أمر واحد : على تحية الربيع وتفريح النفس
بمقدم الربيع .

وكم من صوت للطبيعة يدعو الناس للتقرب ، ولكن الأفكار
الفاسدة ووساوس القلوب المعتلة طالما سعت للتفريق .

القاهرة في ١٣ من ابريل سنة ١٩٢٣

عيد آمنة

... أنها قطعة من النسيج الرقيق في نحو المترين ، ولم تكن لتصلح لشيء ، مذكور تلك القطعة التي بقيت من جلباب لسيدة من سيدات الدار . اتفقت فتيات البيت على أن يجعلن من تلك القطعة رداء لآمنة لتلبسه في يوم العيد .



آمنة فتاة صغيرة في نحو الثامنة من العمر ، قصيرة القامة ، مليئة البدن ، بسامة الوجه ، مشرقة الجبين . ولقد أبقتها أمها القروية عندنا لتتعرع في حضانة من في الدار فهي أصغر من في البيت سنًا وهي صديقة للبيت ولن في البيت . وهي ابنة للجميع وخادمة أمينة للجميع .

ولما علمت الفتاة الصغيرة بمشروع سيداتها من أنهن يُحتلن ليعلن لها من قطعة النسيج جلبابًا تزين به في العيد ، ولما تبينت صحة الخبر إذ رأت تفصيل الثوب وخياطته ، فاض على وجهها السرور وفاض في نفسها النشاط . فتطوعت لكل عمل من الأعمال التي تقدر عليها . بكرت على غير عادة فأطعمت دجاج

الدار وحمامه وملأت أوعية الماء ونشطت كل النشاط على غير ما ألفنا منها ، ولم يكن لهذا من سبب إلا أنها تحققت أنها تلبس الثوب الجديد غداً ، وأنها تلبس حذاءها وتستقبل العيد .

*
* *

لقد كان الأمر فجاء العيد ، وارتدت الفتاة ثوبها القشيب ، وزينت جيدها بعقدها الخشي ووضعت في جيها كل ما اقتصدت من مائيات لا تتجاوز عدد الأصابع . واذن لها أن تلعب في الحارة أمام الباب .

ولم يكن في البيت انسان إلا آمنة والشيخ الأسود العجوز . أما نحن أهل البيت فكنا ذهبنا الى المقابر وكلنا قد بلغنا من العمر ما يؤهلنا لذكر أعزاء لنا قد غابوا في الثرى . فمنا من يذكر زوجاً ، ومنا من يذكر أمّاً أو أخاً أو أختاً ، ومنا من يذكر والدّاً أو جدّاً ، ومنا من يذكر اخواناً وأصدقاء .

ذهب الكل الى القبور ليدكروا في يوم العيد موتاهم . ولقد تحمل نفسى فوق تذكّار الموتى اثقالاً من شئون الحياة ومشاغها . عدت من المقبرة وقضيت بعض ما اصططح الناس

عليه من واجب المجاملة في العيد ، ثم قصدت الدار لأستريح فيها فوجدت على الباب آمنة ترح وتلعب .

وجدتها اشراقا وبهجة . وجدتتها غبطة وسروراً . وجدتتها وكأن جميع أعضائها الصغيرة تشير الى أن أنظر اليها في جلبابها الملون الجميل . أما الشيخ الأسود فكان على مقعده أمام الباب . منحنيا على مسبحته ، لا يكثر بشيء إلا بدمدمة الأذكار التي قد تعود ذكرها عند ما ترتاح نفسه للعبادة .

لم تكن آمنة لتشعر بما أشعر به من حزن ولم تكن آمنة ليمر بخاطرها ما يشق على نفسى من المشاغل والواجبات . ولم تكن آمنة لتقدر من الحياة إلا أنها ظفرت بالثوب الجديد وأنها نالت من بين قريناتها حظوة وبهجة في هذا العيد . لم تكن آمنة لتقدر إلا ذلك ، وحرام على الأيام أن تدس في تلك القلوب الغضة إلا ما يلائمها ويريد الله أن يجعله نصيبها من غبطة وفرح .

*
* *

حرام على الأيام أن تسوق الحزن الى الصغار . وحرام على الأهل أن يشركوا أبناءهم في أحزانهم فيصحبوهم معهم الى المقابر ، وقلوب الصغار لم تهيا إلا للسرور والأفراح .

حرام على هؤلاء الأهل أن يصدعوا تلك الأفئدة التي لا تريد
إلا أن تدق يهجة الحياة، فيحولوا بينها وبين بهجة الحياة .
حرام أن نشرك الصغار في آلامنا وحسب الصغار ما تعدده لهم
السنون والأيام من شدة ومحن .

*
* *

لقد حاولت أن أفرح بالعيد كما تفرح آمنة ولكن هيهات !
هيهات ! فقد حالت السن ، بل وقد حالت المشاغل بيني وبين
سذاجة المسرة . لم يعد للذين جف ماء الفرح من قلوبهم إلا أن
يستفيضوه من نفوس الفرحين . وهل أدنى إلى الفرح من قلوب
الصغار والآملين والأصحاء المعافين والمنعمين الذين غفلوا عن
حوادث الدهر وغفلت عنهم عيون الأيام ! أن هؤلاء هم الذين
تنجذب إليهم من الوجود مظاهر السرور كما تنجذب إلى الحديد
الكهرباء فلتنفع بخصائصهم ويجب أن ننال عنهم قسطنا من
السرور، ويجب أن نهد لهم حياة الأفراح حتى يفيض علينا
شيء من بهجتهم يسرى عن نفوسنا سحائب الألم .

لم يبق لى ولا مثالى من أيام الأعياد إلا ابتسامة نأخذها
مما يفيض من شفقى أمثال آمنة .

قرايين الانتخاب

كان الناس في قديم الزمان يقدمون القرايين والضحايا رغبة في رضا آلهتهم ، أو لاستغفارهم من الذنوب ، أو ليجعلوا مما يقدمون وسيلة لمعرفة شيء من علم الغيب ، والوقوف على كل شيء من أسرار الالهية وعزتها .

وقد كانت تقدم هذه القرايين وهذه الضحايا من خير ما تحرص عليه الناس من لحوم الحيوانات الغريضة ، ومن الفاكهة الطيبة ومن خير ما تنبت الأرض من بزر وحب ، ومن خير ما يحتسبه الانسان من خمر يلذ الشاربين ، ومن خير ما يتطيب به الانسان من دهن ومن خير ما يحرقه من بخور ! !

كانت الناس تجود بأعلى من هذا وذاك . كانوا يجودون بضحايا من البشر عند ما يحسبون تلك الضحايا البشرية ترفع مقت آلهتهم ، وتزيل غضبهم ، وتمنع نقامتهم . وكمن حيوان أغرقه اليونان في اليم إرضاء لآلهة البحار ! وكمن تراب خلفته النيران من عظام ولحوم ليختلط ذلك التراب بباطن الأرض زلنى لمن يسكن جوف الأرض من الآلهة ! ! وكمن دم غاص في

التراب ليروى منه سكان الأرض الأقدسون !! ولكن مرت
العصور على هؤلاء الأجيال من البشر قهذبت عقولهم شيئاً
فشيئاً ، و رقت نفوسهم رويداً رويداً ، وضعف سلطان الأساطير
والخرافات فيهم ، فقلت الضحايا ، واستبدلت بضحايا البشر
دمى وتماثيل قد تلقى في الماء . وقد يرى بها في النيران فداء لتلك
المذارى التي كانت الآلهة تشرب من دماءها وتهش لحومها !!



استبدلت كثير من التقاليد والطقوس الدينية بتقاليد وطقوس
حديثه هي خير من الأولى . فأبطلت عادات ممقوتة . ونزلت
أرباب عن عروشها . وأنقذت الأذهان من سلطان آلهة موهومة .
على أن رباً من الأرباب لم يزل مسيطراً على أغلب نفوس البشر .
لا يرتدع براءع الدين ، وقد لا ينهأ زاجر العقل ، وقد لا ترحزحه
عن عرشه زلزلة العواطف المتيقظة !

أتدري من هذا الرب القدير ؟ أتدري من هذا المسيطر الجبار
القهار ؟؟؟

أنه رب المصلحة الشخصية . وأنه أجشع الأرباب في طلب
القرايين !

— ٦٠ —

لا يَنفَع من اللحوم . ولا يَمل من الدماء . ولا يَستمرىء
الفاكهة ولا يَستطيب الشراب . ولا يرغب في طيب الدهون
أن رب المصلحة الشخصية يريد أن يتقدم له القوم في
الانتخاب بقرايين من الضمائر !!!
ويل له ! . ويل لهم من رب الأرباب ! ...

القاهرة في ٨ من يولييه سنة ١٩٢٣

الوطن.

... وكنت كمن نقل الى عالم آخر حين صعدت الى الباخرة،
 للمرة الأولى ، بعد عشر سنين لم أبرح في أثنائها مصر ولم أعبر
 في خلالها بحراً، فتذكرت أياماً خلت كابدت فيها أسفاراً وقطعت
 فيها أمصاراً . تذكرت عمراً كان الصق بالشباب ، ونفساً كانت
 أكثر قبولاً لمعاني الحياة وخيلاً كان أوسع لصور الأمل .
 تذكرت نفسي اذ كنت أقل تجارب في العيش ، وأكثر جرأة
 في سبيله ، وأقل حملاً من تبعاته . تذكرت النفس في الغابر ،
 وعرضت لها في الحاضر ، ونظرت بين النفس اذ كانت في ضحاها ،
 وبينها وقد أثقلتها التكاليف فالت بها عن سمت الشباب . ثم
 حسبت أن شئون الحياة هي مصدر ما يأل منه الفؤاد . ثم حسبت
 أن ذلك المكان من الأرض الذي أبرحه مصدر ما يضيق به
 الصدر فكدت أقول للباخرة : اقلعي سريعاً ، وتوغلي على اليم
 وسيري الى حيث لا أرى من شرفاتك إلا أفق الماء والسماء ،
 فأرسل أفكارى متواصلة في عظمة الكون ، فلا داراً أراها
 تذكرني بوحوش البشر ، ولا ضوضاء أسمعها ، ولا بغضاء أشهد

آثارها، ولا أودا أقراً فيها اللغو والباطل، ولا وجوهاً كريهة،
ولا سحناً منحطة.

فالى بحر الظلمات، أيتها الباخرة، أو الى بحر الزمهرير،
أو الى منطقة يجهلها الانسان فأنسى عند هذا العالم الجديد الذى
تذهبين بي اليه كل ما يسوء من الماضى، وكل منظر مكروه من
مناظر الغبراء. فلا أرى شكلاً من أشكال الشقاء ولا أرى صورة
من صور الخداع والنفاق، ولا أرى صورة من صور المذلة
والخنوع، ولا أخضع لقانون من تلك القوانين الفاسدة التى
ينوء بها ظهر الأرض، ويروجها الانسان بحماقته وظلمه.

ولكن الباخرة لم تكد تتحرك حتى ضعفت فى نفسى سورة
الغضب، ثم أخذت تخف قليلاً قليلاً مع سير السفين. ولما كاد
يختفى عن ناظرى مرأى الشاطئ وما عليه ومن عليه من الأهل
والاخوان خمدت السورة، وخبث النار وحل محلها فى القلب
نسيم الحنين.

أقول للباخرة عندئذ سبرى فى رعاية الله، أيتها الباخرة ثم
عودى بي الى أرض أحفظ منها صورة ابتسامة مشرقة، واعمى

— ٦٣ —

منها صدى دعوات خالصة ، وأعرف لى فيها اخواناً وأجباء
وأصيب من جهود عاملها خيراً ، وأرعى فيها صبية وصغاراً ،
وأعالج فيها أملاً عزيزاً .

سبرى أيتها الباخرة ثم عودى بى الى أرض الأجباء .
حيا الله مصر . حيا الله الوطن .

البحر فى ٢٨ من يونيه سنة ١٩٢٣

الأكروبوليس

وقفه بالحصن المقدس

من نحو ثمانية وخمسين حولاً . جاء إلى هذه الهضبة العالية التي تشرف من الجنوب على مدينة آثينا ، رجل كان قد بلغ من العمر وقتئذ سن الرجولة ، محيط بتاريخ البشر ، عالم بتطور المدن ، فوق ساعة على سطحها بين معابدها البالية التي شهدت نحو خمسة وعشرين قرناً خلت وقفه أنزلت على نفسه كلاماً صافياً ، تقياً ، نبياً ، أشبه بكلام المأخوذ من المسبحين بجلال الكون وعظمة الله .

اسم هذا الرجل رينان وكان من أكابر البشر ولقد تضمن قوله عن معابد « الأكروبوليس » نوعاً من التمجيد لذوق الاغريق وفهم وعلمهم وتاريخهم حتى صغر عنده حيال عبقرية اليونان كل أثر من آثار الشعوب الأخرى ، وقل في نظره امامها كل جليل من مجهود القرائح .

جئت إلى هذه الصخرة ولست متدرعاً بما تدرع به رينان من العلم ، ولا أملك قلماً كقلمه يسيل بالعدوبة والبيان . ولكني جئت إليها بقلب هيأته الظروف لأن يحس بما يحس به فؤاد

صحيح . لأن يحس المؤثرين الخالدين : الجمال والألم
 أسجل اليوم بعض ما مر بنفسى عند زيارة تلك المعابد ،
 والإيمان فى دقائقها ، خضوعاً لما توحىه إلى الخاطر عبر التاريخ
 من غير حرص على ما يحرص عليه الواصفون ، ومن غير عناية
 خاصة بما يعنى بذكره المؤرخون. وإن ما يسجله هذا القلم لضرب
 من التصوير لبعض حالات النفس عند ما يسمو بها إلى عالم آخر
 معنى من معانى العظمة والكمال .

الجمال المهمل

اثنين فى ٣ يوليه سنة ١٩٢٣

... وبكرت إلى «الأكروبوليس» فلما بلغت باب الجنوب
 اندفعت بسرعة لست أدري لها سبباً ثم أخذت أسير رويداً
 رويداً فى طريق مصعدة تنبت عليها أعشاب برية أزهر بعضها
 وعلى جانبي الطريق شجيرات من الصنوبر والزيتون قصيرة
 هزيلة مصفرة، وقد يرى الناظر قطعاً كثيرة من أعمدة، وحجارة
 وصفائح من المرمر، على بعضها نقوش وكتابة وقد ألقيت هذه
 البقايا جميعاً على الطريق هملًا من غير نظام . وبينما كنت اتلفت

تارة يئنة ، وتارة يسرة ، وتارة للامام ، اذ قيد البصر رأس عمود رفيع ملقى بين هذه الأحجار نحتت عليه أوراق نوع من نبات الشوك . جلست عند هذه القطعة الحجرية الصغيرة التي كنت أستطيع أن أرفعها يدي من غير جهد . وفي هذه الجلسة كنت أتصور كل ما يستطيع أن يتصوره الإنسان من معاني الحسن ثم أسأمت نفسي مسحوراً بجمال هذه القطعة التي قد يمر أمامها السائر من غير أن ينتبه إليها وهكذا الحال في كل جمال مهمل .

كنت أقول في نفسي كيف لا يعنى القوم بهذه القطعة فلا يمتنعون عنها مس الرياح ، ولا يحمونها من صيب السماء ، ولا يحولون بينها وبين قيظ الصيف ، ولا يضمنون بها على عوادى الدهر والغير ؟ ! ثم كنت أعود الى نفسي وأحاورها فأقول أكان اسلامي لجمال هذا الحجر المنحوت ضرباً من التأثير بما كان يليق في روعي من جمال فن اليونان ، أم كان فهماً صحيحاً للحسن قذف الله به في قلبي بعد عمر لم أعرف فيه نفسي مفتوناً بالجمال ؟ ! وبينما كنت أتخيل صورة الأوراق على هذه القطعة أطول مما هي وبينما كنت أتخيلها أقصر مما هي ، وبينما كان خيالي يمد في انحاء هذه القطعة طولاً وعرضاً ويتعرض أوراقها صغيرة وكبيرة ، قليلة

وكثيرة ، كان كل ما يهينه الخيال حقيراً إذا قيس بما هي عليه في الحقيقة والواقع وكأني كنت أقرأ عليها كلمتين صافيتين من كل ابهام : البساطة والجمال .

✠
✠ ✠

ما الجمال ؟ وماذا أقول في الجمال !

الجمال خطيب صامت لا يرغب أن يتحدث الغير عنه إذ في صمته كل فصاحة وفي سكوته كل بيان .

الجمال نسب وأوزان قد تحسه النفس أحياناً بوساطة العين بعد خلوصه مما يعلق به من مادة واضواء ، وقد تسمعه النفس أحياناً بوساطة الأذن دون أن يلبس أحرفاً أو تكون له لغة تحفظ في المعجمات .

الجمال متكبر ، قاهر ، متكبر لانه يحل عن أن يقدمه للنفوس أحد فهو يعرف نفسه بنفسه . قاهر لانه يغلب الأ نفس القوية على أمرها فيوقع في أسره من شاء ، ويتخير لرقه من شاء .
الجمال كالله وكالقوى الخفية من حيث انها لا تعرف بذواتها ، ولكنها تعرف بآثارها .

الجمال صحراء واسعة لا حدود لها يفضل فيها السارى من أى
 ناحية سار ولكنه أينما سار وجد فيه جنات ونعيمًا .
 أجمال كتاب عظيم وضعه مزين السموات والأرض القادر
 على كل شئ .

الجمال ضرب من الأدب فهو رواية طويلة لا تنتهى فصولها
 ولا يتعب ممثلها ، ولا ينل شاهدها .
 أجمال ضرب من المنطق والمعقول مقدماته العين ، أقيسته
 القوادر ، وتتأججه الوجد والهيام .

الجمال عبد صالح لله فلا يطلب اليك فى حضرته الا أن
 تسبح لمولاه .

الجمال معنى طلق لا يريد أن يحد ولا يريد أن يعرف لأن
 الحدود والتعاريف من سفاسف الأمور ، والجمال لا يتصل
 بهذه السفاسف .

الجمال معرفة والله أعرف المعارف ،

و بينما كنت مغرقاً فى شدة الإعجاب بهذا الفن ، تاركاً لذاكرتى
 أحياناً أن تتمثل بعض أوان من المرمر أخرجت من مصر أخيراً
 من مقابر الملوك ، وجبست فى دار الآثار فى قفص من زجاج ،

بينما أنا كذلك أنعم النفس بمقارنة الجمالين واتخيل شيئاً رأيته على
 ضفاف النيل ، وامعن النظر في شيء أراه على جانب صخرة
 (الاكروبوليس) إذاً قبل الحارس الأعرج وكان ينبغي أن أشعر
 بمقدمه من بعد لما يحدثه صوت قدمه وهو يمر بتناقل على حصي
 المشي لولا إغراقى في ضرب من الخيال .

ضحك الحارس في وجهي ودمدم بكلمات يونانية فهمت منها
 عبارة الجمال وأشار بالانصراف . تباً لك أيها الحارس ، لقد قطعت
 على عبادة حارة خالصة .

الفاخرة في ٣ من اغسطس سنة ١٩٢٣

وقفه بالحصن المقدس

العرق دساس

خرجت وقد قنعت من زيارة الأمس بالاستمتاع بدقة الرسم
المنحوت على رأس العمود الملقى بين الأحجار على جانب أحد
طريق «الأكروبولس». وكان لتلك الزيارة أثر رغبي في الفن
والحسن حتى أخذني هيام وولوع بالجمال. آليت على نفسي بعد
ذلك اليوم أن أتجمل فقلت والله لأقصرن شاربي، وأرجلن
شعري، وأعطرن لباسي. والله لأجرؤن في سبيل التأنق فأنبت
على صدرى زهرة غضة، وأزين أظافري، وأضع في أصبعي
خاتمًا يتلألأ نوره، وأرسل على صدرى سلسلة من الذهب البراق
وأمشى بوطء خفيف عند ما يحسن الوطء الخفيف، وأسير مرحًا
عند ما يحسن السير مرحًا.

لا أريد أن يكون شفيعى في سبيل التأنق وفرة مال، فالمال
حقير. ولا أريد أن يكون شفيعى في سبيله علمًا، ففي العلم باطل
وغرور. ولا أريد أن يكون شفيعى في سبيله جاهًا وحسبًا فالمرء
ابن نفسه وكل امرئ عن نفسه مسئول. حتى ولا أريد أن

يكون شفيعى فى سبيله ملكاً فالملك لله جميعاً . انما رضيت أن يكون شفيعى فى سبيله عبوديتى وخضوعى لرب الحسن والجمال أعبدته مخلصاً لوجهه العبادة ، ولقد كان من عبادة آلهة الغابرين منذ القدم أن يتشبه الانسان ببعض أوصافها .

أخذتنى تلك النشوة ، بل أخذتنى تلك الجذبة وأخذت أقول فى نفسى : الجمال فضيلة ومن الخير أن يعمل الإنسان الحيلة ليتصل بجميع الفضائل . ثم شرعت فى الذهاب إلى حانوت لا يتبع منه بعض ما استعين به على التجميل والتأنق .

طلبت الى صاحب الحانوت أن يعرض على أئمن ما عنده من العصى دون أن يحسب للاتفاق حساباً ، وبينما هو يعرض على أرشقها وأظرفها شكلاً إذ حانت منى التفاتة إلى عصا غليظة خلت من الحسن ولكن ملامح البأس والمتانة تبدو عليها ، فلم أرد البصر عنها حتى انتزعتها من بين أخواتها ، ثم عجمت عودها فبرزتها بعنف واتكأت عليها بقوة ، ثم مثلت عندى فضيلة المتانة . وما أطيب المتانة فى الجسم ، وفى الخلق ، وفى العصا .



عفوا يا ربة الحسن إذا لم أف بالعهد فخنثت في حلفي وعدلت
عن سبيلك إلى سبيل رب القوة .

عفوا يا ربة الحسن فالعرق دساس فاني من بلد شيدت فيه
الاهرام واكبراهله الأقدمون البأس قبل أن يكبروا الجمال .

اغريتنى يا ربة الحسن فكدت أغفل لحظة عن رب القوة فلما
توجهت إلى أنظاره واخترقت حجب خمسين قرناً مضت وناداني
من خلف معبد من تلك المعابد القديمة القائمة على ضفاف النيل
أبت اليه تائباً ، نادماً ، وانزعجت العصا المتينة رمزاً لتقدير القوة
ولإجلال المتانة ، ثم هرولت أضرب بها في مناهج أثينا الجميلة
ذاكراً اسم الله القوى الدائم قبل اسمك الجميل .

اثينا في ٤ من يوليو سنة ١٩٢٣

الله اكبر

فعدت إلى سطح الصخرة حيث بقية هياكل الآلهة .
لقيني دليل فرددته إذ أحسبني لست أحتاج إلى دليل فاذا
بشيخ هرم، رث البزة، كربه المنظر، قد اقترب مني وخاطبني بلسان
فرنسي تنسحب عبارته السقيمة متعثرة بين فكين ارتخت
عضلاتهما ووهنت أدواتهما ففهممت منه أنه يريد إرشادي، وأنه
لن يلح ولن يغلو في الأجر وأنه يفخر بنفسه فيحسب أنه يعلم
ما لا يعلمون .

أخذتني رافة بذلك الشيخ الفاني، وقلت لعل الخير عند
هؤلاء الشيوخ، فأومأت إليه بالقول فتقدم متوكئاً، متباطئاً
في صعوده، حذراً في خطاه، وكنت أحوطه بنظراتي حرصاً عليه
من السقوط . فاما جئنا إلى مكان يشرف على هضاب أثينا
ومنازلها أشار الدليل الشيخ بعصاه إلى هضبة وقال هنا على هذه
الهضبة من نحو ثلاثة وعشرين قرناً كان يقف « ذيموستينس »
خطيباً بين أهل أثينا ثم نظر إلى وقال : أتدرى من « ذيموستينس » ؟
فتجاهلت فقال كان فصيحاً كبيراً، فقلت وكم في الناس اليوم

ياشيخ من طلق اللسان فصيح ! فقال أجل ولكنهم يخدمون الباطل
 بفصاحتهم . أما « ذيموستينس » فكان يخدم الحق بفصاحته .
 ثم أشار بعصاه إلى هضبة أخرى وقال وعلى هذه الهضبة
 كان مجلس قضاة « أثينا » ليحكموا بين الناس بالعدل تحت سماء
 الله وعلى مرأى من تمثال رب العدل . ثم استطرد الشيخ من أمر
 القضاة في « أثينا » البائدة إلى القدح في قضاة هذا الزمان وشئون
 هذا الزمان ، وصبرت على شرحه بل صبرت على تشاؤمه حتى
 بلغنا معبد البتول « أثينا » ربة الحكمة .

لا أريد أن أتحدث بما يتحدث به الدليل « ديمتري » من خطأ
 في التاريخ أو صواب . ولا أريد أن أذكر لك كيف استحال
 هيكل الربة البتول « أثينا » إلى كنيسة للبتول مريم بعد نحو
 اثني عشر قرناً من تشييده . ولا أريد أن أذكر لك كيف
 استحال هذا المعبد بعد نحو التسعة عشر قرناً من تشييده إلى
 مخزن لذخائر الترك ومعدات قتالهم . ولا أريد أن أذكر لك
 ما أدى إليه حصار أهل البندقية من تخريب هذا الأثر البديع
 وتحطيمه . ولا أريد أن أحدثك بما حمله لورد الانجليز إلى بلاده
 من كنوز هذا المعبد في القرن التاسع عشر . على أنني أعيد .

خواتم الجمل التي كان يحتّم بها « ديمتري » الدليل شرحه وحديثه :
 « آه لو قدر القساوسة الفن فلم يحولوا ذلك المعبد إلى كنيسة .
 وآه لو فهم الترك جمال الفن فلم يحولوا ذلك المعبد إلى دار لذخائرهم
 أو دار لرهبهم ! وآه لو أخطأت قذائف المتحاربين هذه الآثار
 المقدسة فلم يهدم منها ما تهدم ! وآه لو أبقت اللوردات في تلك
 المعابد كنوزها وآثارها ! ثم آه لو احترم الناس نتائج العبقریات
 ومجهود العقول ! » جمل فيها حسرة وعبرة .

أما جمال هذا المعبد ، وروعة هذه البقايا والآثار ، ونظام
 هذه العمدة ، ونسق تلك النسب ، فلا أحدثك به مهما أطرقت
 إلى ، ورغبت في قولي . فلا القلم قادر على ضبط تصوير هذه
 الدقائق ، ولا اذنك قادرة على وعى ذلك الضرب من الحسن ،
 إنما هي عينك ، وإنما هو فؤادك ، فأقبل إلى وقف معى وقفة
 « بالاكروبوليس » ثم حقق النظر يتحرك الفؤاد .

ولكن شيئاً يبقی بالمعبد من اثر النصراني . ولكن شيئاً
 يبقی بالمعبد من اثر المسلمين ! آلهة حلت الدار اثر آلهة . وزمان
 استخلف على هذه الآثار اثر زمان . وأحداث وغير تمر على تلك
 الأحجار والانتقاض خلف أحداث وغير . ودول تأتي وأخرى

تدول . فمن رب الأرباب ومن رب المكان والزمان ، ومن محدث
الأحداث ومغير الغير ومعر الدول ومذل الملوك والقري ؟
سبحانه سبحانه ما اكبر شأنه .

عفواً أيها الاله الأعظم وغفراناً إذا أنا بقيت ساعة بهذا المعبد
أناجي ربه الأولى ، وأتمثل قرونًا خلت ومدنيات عظمت .
إنكم معشر الآلهة تتعالون عن التعدد فأنتم واحد وإن تعددت
أسماءكم ، ووحدة وإن تعددت صفاتكم . وفي ذكر أحدكم ذكر
للآخر كما يعلم الراسخون .

لقد كنتم دهوراً وكانت عروشكم قم هذه الجبال ، ومعابدكم
من مرمر مسنون ، وفي خدامكم عذارى يشرق جملهن حول
تلك المعابد ، وينتشر عطرهن حول ما يحرق من بخور .

كنتم تخاطبون الناس على قدر عقولهم أيها الآلهة يوم كانت
عقول البشر أقل مراناً على فهم المعاني العالية ، فتصورون أنفسكم
في حدود تصوراتهم ، وتشكلون عظمتكم بأشكال خصالهم ،
فتقتلون مثاماً يقتل الإنسان ، وتغضبون مثاماً يغضب ، وتلعبون
مثاماً يلعب ، وتمكرون مثاماً يكر . اختلطتم بأهل الأرض ،
وكنتم تعيشون بينهم ، وتبادلون وإياهم المشاعر ، وكنتم ضيوفاً

عندهم وكانوا عيالاً عليكم وكانت حياة البشر حقاً مقدساً .
 ولكنكم قدرتم أيها الآلهة أن عقول الناس قد مرنت ، وأن
 بصائرهم قد صفت ، وأن قلوبهم قد رقت فتحوّلتم في الأذهان
 إلى آلهة ذوات معان دقيقة وصفات لطيفة لم يفهمها الناس حق
 فهمها فتباعدت المسافة حينئذ بينكم وبين نفوس الناس . ثم
 تحوّلتم بعد ذلك إلى ربوبية واحدة ومعنى أوسع وقوة أشمل .
 كانت بيوتكم هياكل ، وكانت كنائس ، وكانت مساجد وإن
 تلك الهياكل التي شادتها يد الإنسان ستزول ، وإن تلك
 الكنائس التي خطتها يد الإنسان ستزول ، وإن تلك المساجد
 التي دعمتها يد الإنسان ستزول . ولكن عروشكم الأولى القائمة
 على جلال الكون وجمال الطبيعة باقية لا تزول

والآن أجلس في بيت من بيوتك يا ربة الحكمة فلا هو
 بالهيكل ، ولا هو بالكنيسة ، ولا هو بالمسجد ولكنه بيت يحفظه
 التاريخ ويحوطه العلم وتحترمه الحكومات ، وتبج إليه العلماء ،
 ويطوف به أهل الفن ، ويذكر في عرصاته الذاكرون كيف تتغير
 الأحوال وكيف تستحيل المدينيات وكيف يفهم الجمال !
 تحولوا ما شئتم أيها الآلهة حسبما تجدون من ظروف الأرض

والزمان واستعداد العقول ، ولتسعد بكم أحزابكم فلقد تبينت
ربى وعرفت إلهى .

هو رب أبى مذ كنت فى صلبه ، ورب أمى مذ تكونت فى
أحشائها ، هو رب كما تعلمون واسع باسط . له بيت من حجر
لا تقوش عليه كيوتكم ولا فن فيه . لا يضره إذا فتت ييته
واستحال رمالا تذروها رياح الصحراء المتهبة . ولا يفرحه
ان سبكت له مدينيات الدنيا وفنونها لأن كل شىء ما خلاه
باطل فهو غنى بنفسه وهو قانع من المعابد والبيوت بكتلة من
الحجر الأسود لا نسق فيها ولا جمال .

ربى ، يارب الدار ، بدوى الطبع يقنع من الأرض بالرمل
الواسع ، ومن السماء بكواكبها وغيثها وحسبه الشعور بوفرة
العزة والكرامة .

ذلك هو ربنا ، يارب الدار . ذلك هو رب الكعبة الذى
نودى اسمه بعد عشرين قرناً مضت على هيكلك بين جدرانها
فقال قائلنا حينئذ الله أكبر ، الله أكبر . حى على الفلاح .

لقاء الوطن

... وحينما كانت تسير بنا السفينة في الليل حيث لا نرى
إلا نجوم السماء ، والأفق مظلم من جميع النواحي التي تحيط
بالفلك يمت نحو ريان الباخرة حيث كان في غرفة عمله فحيته
وقلت أنحن الآن في منطقة مصرية أيها الريان ؟ فقال نعم فقلت
ومتى ان شاء الله نرسى على بر مصر ؟ قال في ضحى الغد . عندئذ
تولاني ضرب من السرور ، وسرى الى فؤادي نوع من الاطمئنان
ولبست درعاً من العزة ، فاشعلت غليوني ثم أخذت أسير على
ظهر الباخرة ، وأخرجت من محفظة أوراقي كتباً وردت الى وأنا
في بلاد الغربية من أهل وأصدقاء ، كتباً كنت هممت بتمزيقها
وطرحها بعد أن علمت ما بها إلا أن عاطفة حالت بيني وبين أن
أقرب تلك الرسائل في أرض غربية نائية فلما علمت أنني أتنفس
من هواء مصر ، وتظلني سماؤها ، ويحملني ماؤها ، ألقيت في اليم
بتلك الكتب التي قدرت أن لا فائدة من حملها وقلت في نفسي
اليوم لا ضرار فالآن تزول حروفها في ماء الوطن وتتحلل مادتها
في حيزه .

ثم نزلت الى غرفة نومي وأوصيت الخادم أن يوقظني مبكراً حتى أتخير مكاناً على ظهر السفينة أستطيع أن أعتزل فيه لأتبين منه أرض مصر من بعيد وقبما يقدر النظر على تبينها . ثم ألقيت بنفسي على مضجعي ولكن خواطر كانت تضطرب في رأسي حالت بيني وبين نعاس كنت في حاجة اليه . ثم غلبني النعاس أخيراً ثم أوقظت وقبما أردت . ثم صعدت الى ظهر الباخرة وشخصت ببصري الى حيث يمكن أن يلوح الشاطئ وكان الفلك يسير . وكأن الفلك كان سيره بطيئاً . ومن بعيد بعيد تبينت خطاً طويلاً قائماً يتجلى في الأفق . تبينت تلك الأرض التي طالما قدرت لها جيلاً . وتجاوزت لها عن ذنوب وسيئات ، قهضت واقفاً ومددت ذراعي الى حيث أرى ذلك الشيخ المحبوب وقلت سلاماً وتحية ورحمة من الله عليك مصر أمنا الرءوم . لوأن الله قضى على الساعة بالموت للقيته مستريحاً وأغمضت عيني على شعاع من النور يفيض من شمسك ، ولفظت آخر زفير يحمله الصدر من هوائك . ولو كان للسان أن ينطق وقتئذ بكلمة لكنت دعوة لك صالحة ختامها الحمد لله رب العالمين . ثم انتقلت من مكاني الى مكان آخر حيث أحضر لي قلم وقرطاس فكتبته هذه الكلمات « أحب مصر لأن كل ما يتصل بي من خير إنما

هو من فضلها وبركاتها. أحب مصر لأننى أحب آمالاً تولدت فى
منها، ولأننى أحب خيراً يوحى الى ما فيها من شر، ولأننى أحب صالحاً
يوحى الى ما فيها من فاسد، ولأننى أدرك فيها نقصاً يحجب الى الكمال.

أحب مصر لأننى أراها مزرعة واسعة ضعفت أرضها وهرم شجرها
المثمر، وأساءت الحشائش المفسدة الى نبتها الطيب فاعلى أصلح
فيها باعاً من الأرض، ولعلى أعين فيها نبتة نافعة على النماء،
ولعلى أستمع يوماً فيها بشرة ناضجة. أحب مصر مستودع عظام
ودماء أنا جزء منها، ومستودع تاريخ وأحلام لى فى جميعها
نصيب، ومستودع قلوب تحنو على وتتصل دقاتها بدقات فؤادى».

ثم أحضر لى الخادم طعاماً وبعد أن طعمت صعدت مرة
أخرى على ظهر الباكسة. تبينت عن بعد دور الاسكندرية
العالية فقلت: « سلام عليك أيتها الدور ما دام فى اهليك من
يتقى الله فى حق هذه البلاد. سلام عليك ما ظلت فىك نفوس
ترعى باخلاص صالح هذا الوطن »

ثم أفلتت دمة من عيني من أثر الانفعال فنزلت الى غرفتى
لأهين متاعى، وانزل الى البر والقي أرض الوطن.

القاهرة فى ١٠ من سبتمبر سنة ١٩٢٣

لعام ١٩٢٤

في مقدم هذا العام . انتقلت من دارى القديمة التى كنت أسكنها الى تلك الدار التى أسكنها الآن . وبينما كنت أعمل ليلاً فى ترتيب أمتعتى ، وإخراج كتبى ، والصور التى أزين بها الحوائط من حقائبها وصناديقها إذ أُخْرِجت من أحد تلك الصناديق صورتين تعودت أن أحلبهما فى غرفتى مكاناً يكثر عليه ترداد النظر .

كانت إحدى الصورتين لعزير قصى فى شرح الشباب ، فكنت أخرجها من قاع الصندوق كأني كنت أخرج تذكراً ماضياً من أعماق القبور . وكانت الصورة الأخرى لعزير بعيد ما زال حياً ، تشخصه مذ كان فى ربيع العمر باسمًا بهياً .

أخذت الصورتين برفق ، ونظرت إليهما نظرة دعت الى نفسى عظة وحسرة ، وامتزجت ذكراهما فى الخاطر بانتقالى من دار الى دار ، بل امتزجت ذكراهما فى الخاطر بانتقالى فى العمر من عام الى عام . ثم تغلغلت تلك الذكريات المختلفة من حبيب مات ، وعام فات ، وعزير غيرته الاحداث والأوقات !!

تغلغلت في النفس تلك الذكريات فهاجت الخيال ، والعواطف
والفكر . حول ذلك الدهر وحول ما يسوق من عبر .



لقد أفنى الدهر صاحب الصورة الأولى فاستحال الى تراباً
وستنسى يوماً ما من النفوس ذكره .

ولقد حول الدهر بعد عشرين صاحب الصورة الأخرى
من حال الى حال . نخط على الجبين خطوطاً لم تكن عليها من
قبل ورسم على تلك الحدود ثنيات . وانضب من ذلك الحيا
ينبوعاً من ينابيع البسات . وأبدل سلوكاً من الشعر الذهبي
بسلوك من الفضة . وأسكن ذلك الرأس فكراً ومشاعل
لم تكن لتسكن ذلك الرأس الجميل في الصبا . واسكن ذلك
الفؤاد الطيب آلاماً ما أشدها على ذلك الفؤاد الحساس . وأزال
من ذلك القدر المياس نشاطاً وخفة ما أحوج الجسم إليها في
سبيل الحياة .



تذكرت ما أحدثه الزمن في الشخصين ، فكررت النظر في
الصورتين ، ولكنهما على ما كانتا عليه من نيف وعشرين ! .

ما زال رسم البسمات على تلك الشفاه بادياً وما زالت الأعين
فيهما لا تغمض عن مرأى هذا الوجود !

عندئذ تخيلت الزمن ضعيفاً بنفسه لا يقوى على سرعة تغيير الجماد
عندئذ ذكرت أن أقرب ما تصل إليه يد الزمن هي الحياة
والأحياء والنفس ومن بالنفس ومظاهرها يعيشون .

عندئذ حقرت الزمن لضعفه أمام المادة .

وعندئذ أكبرت الزمن لقوته وقدرته على الأرواح والنفس .
عندئذ استقسيت الزمن لتحويله الصبح ندباً ، ولتحويله
البسمات دموعاً وأنان ، ولتحويله النشاط وهناً ، والوهن فناء .
عندئذ حمدت الزمن فقد يحدث الآلام وقد ينسى الآلام .

✱
✱ ✱

أصغرت شأن الزمن ، وأكبرته ، واستقسيته وشكرته .
وكانت تلك العواطف والأحكام المتناقضة تترع نفسي ، وتقور في
رأسي ، فتدفعني الى نزعات ونزوات وتطوف على تخيلات حتى
رغبت في أن أتخلص من تذكر الزمن وشرعت في أن أخرج

ولو برهة صغيرة عن سلطانه الحقير الكبير ، القاسى المشكور .
 نخطر ببالي أن أرتدى ملابسى واخرج ليلاً واعين الناس غافلة
 لأقصد على غير ما ألفت داراً من تلك الدور وهناك أشرب ،
 وأطرب ، وألهو وألعب . فالسنون تطوى ونحن عن حياتنا غافلون ،
 والعمر يتقدم ونحن عن انفسنا ساهون

هممت ولكن . . . ولكن ما كدت أهم حتى عاقتنى العوائق
 وأقربها منى ضعف الجسم ويقظة الضمير .

فيا معشر الشباب احرصوا على حسن استخدام الزمن
 ولا تتركوه يمر دون أن تنالوا منه ما قد ينيله من رقى فى النفس
 وسرور . واعلموا أن أطيّب آثار الدهر فى العيش ما يتصل بنفوس
 الأحياء من صفو ، وحب ، وصفاء .

القاهرة فى ١٢ من يناير سنة ١٩٢٤

السماء

ترسل السماء أضواء في الليل والنهار . وطالما أحييت السماء
الخلائق بأنوارها وحرارتها . وطالما هدت كواكب السماء سفناً
ضالة الى بر النجاة . وطالما أمدت السماء عواطف البشر بخير
ألوان الشعر والخيال ، فأسكنوا آلهتهم أنخم ما تخيلوه في السماء
من أبراج وطبقات ، ثم نقلوا على الأرض أمثلة مما تصوره ،
فعملت الفنون إذ ذاك شئونها : فشيدت المعابد الضخمة ، والبيع
الزاهرة ، والمساجد العامرة .

إن الزهور والحقول لتنتعش انتعاشاً عند ما تشرق عليها
الشمس من سماواتها في الصباح . وأن أرواح الأفراد والأمم
لتنتعش كذلك إذا أشرقت عليها شمس المثل السامية .



المثل الاسمى هو سماء صافية تستخرج البصيرة من كبدها
كل خير ، بل هو أفق رفيع يستنهض العواطف اليه ، فتتحرك
النفس دائماً للرقى والعروج ، بل هو معنى إذا امتلأت به نفس
الإنسان استصغراً أكثر ما يشغل الناس من سفاسف الأمور .
بل هو إشراق ساطع كابتسامة الحور العين يملأ لآلاؤه النفس

غبطة وارتياحاً ، بل هو ذلك الرقيب القوى الذى يسدد الخطا ويوفق الفعال الى حيث يريد الخير والحق أن تكون تلك الخطا وتلك الفعال . ذلك هو المثل الأسمى . ذلك هو سماء النفوس الصافية .

*
* *

فى تلك السماء المعنوية — سماء المثل الأسمى — كواكب تهتدى بها النفوس الرشيدة التى تعلم كيف تهتدى بها كما تهتدى الملاح بنجوم السماء وهو يسير فى البحر الزاخر . فيها كواكب للعدل ، وللرحمة ، وللمحبة ، وللعطف ، وللكرامة ، وللخير ، وللحق وكم فيها من كواكب الخصال الحميدة ، والشيم الكريمة . وفى تلك السماء ترسم أشباح الأنبياء والقديسين والعطاء والصالحين من الناس والأبرار والصابرين والشاكرين والذاكرين . كلهم كواكب وفى تذكرهم نور يهتدى به البشر .

فليجتهد كل إنسان فى أن يصل بين حياته الأرضية المادية بتلك السماء المعنوية . وليربط بسبب بين عالم الحقيقة الحاصلة وبين عالم الخيال الجميل المنتظر ، وليعلم أن الحياة الدنيا لا تطيب إلا إذا مزجت بحياة روحية عالية مداها المحبة بين الناس ، وغرسها السلام ، وأفقها السماء .

الموت الساخر

« أنجل » رجل نحيف الجسم . ممتنع اللون فقير الثياب
له عينان واسعتان يسفلان جبهة ظاهرة العظم ، ويعلوان وجنتين
بارزتين . له شاربان رقيقان طويلان مرتفعان وإذا ابتسم تنفرج
شفتاه عن أسنان ناصعة البياض ، قوية حسنة الرص والترتيب .
وخلاصة القول في وصفه أنه لطوله ونحفه وقلة لحمه ودهنه
وابتسامته الخاصة أدنى الى صورة تلك الهياكل العظمية التي
يخلصها الموت من الإنسان بعد زمن قليل .



طالما كنت ألقى « أنجل » في حانوت الحلاق . وطالما كان
يقص على سوء حاله ، مع كثرة عياله وقلة أشغاله . وكثيراً ما كان
يثور في حديثه على نظم الحياة . وكثيراً ما كان يسب الفقر ،
وكثيراً ما كان يسخر من الغنى الشحيح .



مر زمن طويل لم أرفيه وبخه صاحبي هذا ولم تسمع فيه أذني
صخبه على الدنيا ، وأنيته من أهلها ، وبينما كنت سائراً ذات يوم

في إحدى تلك المناهج الكبرى إذ وصل إلى صوت استوقفي
 فإذا بصاحب الصوت هو « أنجل » ييسم لي ، ويمد إلى يده
 وكنت أكاد أنكر صاحبي القديم لأنه أصبح على غير ما كان عليه
 من صورة ومسوح .

✱
 ✱ ✱

أصبح أنيق الثياب بعد أن كان رثا . أصبح عطر الرائحة
 نظيفاً . أصبح متخماً بالذهب . أصبح مترفاً بالحلى . أصبح وجهه
 مضيئاً بعد ظلمة . أصبح صوته مليئاً بعد تهديج . أصبح « أنجل »
 غير ما ألفت ، وأصبح « أنجل » غير ما عرفت . حياني باسمي ،
 وصاحني وثيقاً ، وكلني متلطفاً رقيقاً ، وكل ذلك وأنا أنظر إليه ما بين
 تحديق وترنيق ، وكأنني كنت مذهولاً من مظهر للرغد والنعمة
 ما كنت أظن أن ألقى الرجل عليهما في يوم من الأيام .

✱
 ✱ ✱

ثم مضى « أنجل » في سبيله ، ومضيت أنا الآخر في سبيلي
 أفكر في أمر هذا الانقلاب الغريب حتى لقيت رجلاً يعرفه
 فحدثته في أمر ما رأيت فقص على الأمر وفسر لي الغز :
 ذلك أنه كان « لأنجل » عم بخيل جمع مالا كثيراً ولم يستمتع

به فى شىء ولم يكن له وارث غير « انجل » فأت الم وأحيا موته
ذلك الذى كان بالأمس حيا ميتا .

عندئذ مر بنخاطرى شىء مما يقوله الاشتراكيون فى المال
ومخلفى الثروات والأموال . وعندئذ فهمت السر فى نعمة صاحبي .
وعندئذ تجلت لى معنى تلك الابتسامة التى لقينى بها فى حاله
الجديد . ورأيت فى صورتها المتصلة بهيكله النحيف ، ووجهه
العظمى ، ابتسامة الموت الساخر ممن لغيرهم يجمعون . وعندئذ
قدرت معنى الأثر الإسلامى القائل « ينادى مناد كل ليلة فيقول
اللهم اجعل لمنفق خلفاً ، ولمسك تلفاً » ثم ترجمت على من قال
وان أشد الناس فى الحشر حسرة

لمورث مال غيره وهو كاسبه

عائلة

الدار في فينا ، في الحى العاشر ، وهو حى متعدد فيه المعامل
وفيه مدرسة للهندسة الصناعية ، وفيه يسكن أكثر من يعيشون
بعرق الجبين

قصدت الى هذا الحى لالحق تلميذاً من أهلى فى تلك المدرسة
فسرت فى بعض سبله وطففت مع نفر من شبانا الموفق فى بعض
نواحيه لانتخير مسكناً للطالب الذى أتعهد بعض شؤونه واهتدينا
أخيراً إلى الدار .

الدار كبيرة ذات طبقات خمس ، وفى كل طبقة سبعة أقسام
والعائلة التى رغبتنا فى استئجار غرفة عندها تسكن الطابق
الرابع . وفى ذلك القسم الذى تسكنه يجد الداخل بهواً صغيراً
تشغله أدوات لمعالجة الطعام . ويجد عن يساره غرفة صغيرة فيها
سرير من خشب ، وخزانة ملابس ومنضدة ، وبعض مقاعد .
ويجد عن يمينه غرفة أخرى أكبر من الأولى فيها سريران
كبيران وبجانبهما سرير صغير . وفى إحدى زوايا تلك الغرفة
معزف (يانوف) ، وفى زاوية أخرى خزانة للملابس . وحوائط

الغرف مغطاة بالورق المزركش وأرضها من خشب مصقول ناعم، وفي السقف ثريات جميلة للكهرباء. تلك هي الدار وأثاثها، أما ساكنوها فعامل خباز يناهز الخمسين من العمر وزوجته وولدهما الطفل (ماركس) وهو في نحو الثانية عشرة وكلهم (وولف).
دخلنا تلك الدار قبيل الظهر وكنا أربعة فوجدنا الرجل مشمراً مجدداً في تنظيفها. وبعد تبادل التحية سأله أحدنا أنها غرفة لطالب؟ فقال نعم وفتح باب الغرفة الصغيرة فتفقدنا أثاثها. ثم سأله سائلنا وما أجر تلك الغرفة؟ قال الرجل علم ذلك عند ربة الدار وهي الآن في عملها وستعود حول الساعة السابعة. فقال قائلنا أولست رب الدار؟ وقد يكون عندك نبأ ذلك! فاجاب نعم ولكن هذا من شأن السيدة فتفضلوا بالعودة ريثما تعود وينكم وبينها يكون الحساب.

نزلنا على أن نرجع وقلت في نفسي إن في هذه الطبقات الفقيرة من يذكر حكمة الانجيل «دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله» ثم ذهبنا إلى حيث صرفنا وقتنا وعدنا في الموعد المضروب. طرقتنا الباب ففتحته لنا سيدة تماثل زوجها في العمر ترتدى بزة بسيطة نظيفة. تم عن فقر وصبر. ولما دخلنا الدار انعمرت أسماعنا

فى جو من التوقيع والنم فنظر احدنا وقال إنه طفل صغير يعزف فتوجهت أنظارنا حيث الغرفة التى تتدفق منها الموسيقى تدفقا وكان بابها موارباً قليلاً ففطنت السيدة الى دهشنا ودعتنا لندخل تلك الغرفة. وهناك وجدنا الشيخ الجبار يجلس على حافة السرير الصغير ، وفتاة وفتى من الجار الجنب يجلسان على حافة السرير الآخر ، وبين يدي الفتى آلة موسيقية شبيهة بالعود ، أما الطفل فكان أمام البيانو يدق بأنامله الماهرة الدقيقة ويرافقه الفتى على الآلة الأخرى والفتاة كانت تشترك معهما بصوتها انشاداً . لم يكن لنا فى تلك الغرفة مكان لنجلس ، فوقنا ووقف الشيخ معنا وضاق المكان بنا وبما فيه من أثاث . سألتى ربة الدار عما إذا كان لنا رغبة فى سماع شىء معين . فطلبت لحناً من تأليف الموسيقى (اشتروس) . فأخذ الغلام يعزف بمحذق ماطلبت . وكان الشيخ أبوه ذو القميص الأزرق واللباس المرقوع يرمقه بنظر العاطف الآمل وأمه فى زاوية تحيطه بحنانها وغبطتها . ولحت لباس الصبي فوجدته ممزقاً رثاً . طأطأت رأسى إجلالاً لأنى كنت أسمع من دقات الصبي أنشودة الفقر والجد والشرف ، ونظرت إلى من حولى من الرفاق ليستوحوا من تلك الحياة موعظة .

ولما انتهى الغلام من توقيعه بين إعجابنا صفقت له مع رفاق
وهنأت به أمه وأباه . ثم دعوت السيدة لتنتقل معنا الى الغرفة
الثانية لتفاوض فيما جئنا من أجله . وهناك قدمت الحديث
بكلمة في الموسيقى وفي مستقبل ذلك الموسيقى الصغير وإذا ذلك
قالت السيدة بشيء من السذاجة والألم... « لقد قال لي الأستاذ
الموسيقى « ماير » علمى صبيك فقد يصير رجلاً عظيم الشأن
في الموسيقى شبيه « بموزار » ولكن عملى وعمل زوجى ودخل
الغرفة التى أوجرها لا يبقى لنا من المال ما نربى به نبوغ الولد »
تأثرت وتذكرت أن النبوغ طالما نبت فى أمثال هذه العائلة
التي شعرت فى جوها بالفضيلة والصبر والقناعة وفهم الحياة
والاحتياال الشريف على التمتع بما فى العيش من جمال . تذكرت
من رجال الغربيين « روسو » و « كنت » وتذكرت « رينان » .
ثم قلت فى نفسى عائلة تطلب اليسير من المال فلا تجده
تكوين نبوغ مرتجى ، وعائلة تصرف الكثير من المال على ولد
فيكون من الضالين . حارت الأفهام فى تقسيم الحظوظ . الحكمة
يفعل الله ذلك !!!

ضيق وضجر

شئ يوقر الصدور فلا تتسع الصدور لما ينعش من هواء .
 شدة تقرب بين ثنايا الجبين وتخفى في غورها اشراق الجبين .
 نقطة سوداء في الأفق يراها البصر الكليل ، ولا يحدد
 عن مرآها البصر الكليل .

عروة تصل بين الحاجبين ، وعقدة تضرب على الشفتين
 الصامتتين .

سداة تلقى في الأذن ، فلا تسمع الأذن عبارة تسلية أو كلمة عزاء .
 سيال يسرى في الأعصاب فيخدر الجسم عامل القوة
 وعامل النشاط .

*
* *

ومع ذلك فقد تكون نسمات الليل تقيّة باردة ولكنها تمر
 الى الصدور دون أن تحس الصدور بيردها وسلامها .
 ومع ذلك فقد تكون الجباه ملساء ينعكس عن لمعانها نور
 الله ورضاه ، ولكنها تخفى النور وتبدى الغضب .
 ومع ذلك فقد تكون في الفضاء شمس وأقمار وأضواء
 متلائة ولكن العين لا تقع إلا على النقطة السوداء .

ومع ذلك فقد تسيل البسمات وتنتقل من شفة الى شفة ،
كما ينتقل الطير من زهرة الى زهرة ، ولكن البسمات لا تقع
على بعض الشفاه .

ومع ذلك فقد يحمل الهواء ألحاناً عذبة ، ونغمات شجية ، ولكنه
لا يحمله الى بعض الآذان .

ومع ذلك فقد تكون مادة الأعصاب سليمة لم تأكلها
السنون ، وتعاقب الأوصاب والذات ، لكنها لا تقوى على
الحركة ولا تستمرىء للنشاط طعماً .

تلك هى صورة الضجر . وذلك هو شأن الضجرين .

‡
‡ ‡

وكم من مرة يحاور الضاجر نفسه فى أمر ذلك الضيق وفى
بيته رغيف يأكله فلا يشكو جوعاً ، وفى حقيقته كساء يرتديه
فلا يخاف عرياً ، وتحت سماء الله سقف يظله فلا يخشى قلة
المأوى ، وعلى أرض الله فراش وثير يتقلب عليه إذا أوى فلا
يخاف خشونة وبأساً .

وكم من مرة يقول : أى سم جرى فى دى فكان مصدراً
لذلك الضجر ؟

وأى غبار يختلط بالهواء فيصير الى صدرى فيجبس عنى
الهواء رطباً بليلاً ؟

وأى كثافة تختلط بالأضواء فلا تشف عن لآلائها وبهائها ؟
وأى سحرة تمسح تلك الوجوه أمامى فتحول الى أشكال
القردة الهازلة ؟

وأى سحرة تلون تلك الوجوه بالأحقاد القائمة ؟

✱
✱ ✱

أف أف يارباه . . . أهو دم فاسد يجرى فى عروقى فيفسد
على هذا الوجود ؟ أم هى مواد حللها الفساد فاعتدى الجسم منها
فلا أرى فى الكون إفساداً ؟ أم هى الحياة الاجتماعية قد اعتلت
واختلت ، وأحوال النفوس قد فسدت ؟

أف أف . . . لقد فسد جو الحياة الاجتماعية فأصبحت
أكثر النفوس لا تتنفس إلا ضيقاً وضجراً . فتى يستحيل الضيق
فرجا ينفث عن الصدور ويطهر الجو المسموم ؟

القاهرة فى ١٣ من يونيو سنة ١٩٢٤

لذكرى الأديب^(١)

... وفي الليل تتألق نجوم في السماء، وعلى الغصون زهور
تبسم، وعلى الصدور لآلىء تداعب النور، وفي القصبة وحى
ودرر بين أصابع الأديب ..

✱
✱ ✱

ويسألون ما الأدب؟ ويسألون من الأديب؟ ..
الأدب عالم معنوى تتغذى منه العواطف الرقيقة، والأفهام
الدقيقة، بل هو معراج ترقى به النفس الى السماء لتشعر بالجمال،
وتعقل الكمال .

والأديب إنسان يعلم كيف يتحدث الى النجوم المتألقة،
وكيف يخاطب الغصون المياسة والزهور، وكيف يجعل من صرير
القلم نغماً شجياً .

يكدح ويكد، وقد يسهر الليل وراء لفظ من الألفاظ، بل
قل وراء درة ليسكن فيها المعنى الطريف .. بل وراء أحرف
إذا هي امتزجت فكاً ثما هي أوتار تسمعك صوت المعاني عالياً
رناناً . بل وراء قبس من نور يضيء حول الخفى المستور في زوايا

(١) كتبت لذكرى المرحوم السيد مصطفى لطفى المنفلوطى

النفوس ، فتراها واضحة جليا . . بل عن صور من الفزع والجزع
والغبطة والهناء ، ليرمز بها المعاني الفزع والجزع والغبطة والهناء . .



وإنما يكون في مجالس الناس إذ يقص القصصون ،
ويتحدث المتحدثون ، ويتسامر المتسامرون ، فتنظر في وجهه ،
فترى حديقته كأنهما اتجهتا إلى عالم آخر . وكثيراً ما تطير نفسه
إلى حيث تناجي الملائكة ، إلى حيث تتخاصر المعاني والكلم .

وإنما قوم يلهون في مآكلهم ومشاربهم ، ومتاجرهم ، وترهاتهم ،
ودسائسهم ، يلهو الأديب بما يهبط عليه من عالم البيان ،
وما يستوحيه من عالم السحر الخلال .

وإنما قوم يعيشون بجسومهم ونفوسهم على الأرض وحول
المادة ، يعيش الأديب بنفسه في السماء وحول ما في السماء . .

وطالما تحول ذهنه المكدود وأكسیر دمه وخلصة عصبه إلى
تلك السطور التي تقرأونها وتقولون أنه يكسب منها ثناء ، أو
مألاً . ولكن كل ما يكسبه الأديب من مادة يتحول عنده
معنى وأدباً ، تنفسون من نسماته ، وتنسمون من شذاه .

يعيش الأديب من العمر ما شاء الله أن يعيش ، ولكنه
يعيش في الفن والفن . وتصادفه في حياته آلام وأوصاب ، ومع
ذلك تمر عليه ساعة هناء لا يعدلها عنده أى متاع وهناء . ساعة
يتزوج المعنى من لفظ ، ساعة يحضر هذا الزفاف المحمود .



يعيش الأديب في أدبه ثم يأتيه الموت . . . الموت . . .
حينئذ ينضب الحوض الزلال الذى كنتم منه ترتشفون . حينئذ
يسكت البلب الذى كنتم بأغاريده تطربون . حينئذ لا تجد
الطيور من كان يداعبها فى غدواتها وروحاتها . حينئذ لا تجد
النجوم من كان يسامرها فى داراتها وعوالمها . حينئذ لا تجد الحسان
من كان يعلم كيف يناجى الحسان ويفهم قدر الحسن والغزل .
حينئذ تفقد المعانى من كان يدق لها الطبول لتتخاصر مع
الألفاظ ، وتسألون أين الذى كان يخاطب النصوص إذا ماست ،
والفائنات إذا دلتن ، ويحرك الأفتدة العاطفة ، ويطمئن القلوب
الواجفة . . وتسألون أين الذى كان يحرق البخور ويعطر الهواء ؟؟
إنه الآن فى الثرى وتحت التراب

— ١٠١ —

✽
✽ ✽

يا صاحب الجبين الندى ، والذهن المكدود : أنك تموت
بعد الحياة ، وتسكت بعد الخطاب ، وأنتك تجد الملائكة تهىء
لك عقوداً مما ثقبته من لآلى ودرر . فإذا كان في عقد منها خرزة
صغيرة من خزف فاعلم أنها دليل هذا اليوم الذى هبطت فيه
من عالم الأدب الرفيع فشاركت الناس لحظة فى ترهاتهم وأباطيلهم .
على قبر الأديب تحية وسلام .

ليون (فرنسا) فى ١٨ من أغسطس سنة ١٩٣٠

في الغابة

يوم الأحد . . . وقد أشرقت الشمس ، واعتدل الجو ،
وأمسكت السماء صيها بعد أن عبست وأمطرت مدراراً في أيام
هذا الأسبوع الماضية .

خرجت من الفندق قاصداً الغابة القريبة فانهجت سبيلاً
مطروقاً ثم عرجت في سبيل آخر إذ سمعت ثمت نغماً
موسيقياً مطرباً .

ولما بلغت مفرقا للطرق اتلفت هناك رجلاً مبتور الساق
يستند على شجرة وبين يديه آلة من آلات العزف يوقع عليها
ذلك النغم الشجي . في مثل هذا اليوم الصحو يحج القوم إلى
الغابات من أقصى المدينة والضواحي المجاورة نسوة ورجالاً ،
وفتياناً وشباباً ، وأطفالاً ، ورضعاً . وفي مثل ذلك اليوم يقضى الناس
شطراً عظيماً من نهارهم في حضن الطبيعة بين لفائف الأشجار
ليتنسوا من نسيمها المجدد للدماء . وفي مثل هذا اليوم يكسب
ذلك المنكود ما يجود به ذوو الشفقة وأهل الإحسان من هؤلاء
المستريضين .

ذهبت كذلك لكي أمتع نفسي بما ليس في بلادنا من مناظر
تلك الربى وتلك الغابات ، ثم اتخذت مكاناً غير بعيد من الموسيقى
وغير بعيد من الطرقات التي يمر بها الراحون والغادون . فمن أم
وبنيها ، ومن زوج وزوجها ، ومن غادة هيفاء تتأبط ذراع فتى
مليح ، وكثير من هؤلاء المستريضين يحملون أدوات يستخدمونها
لطعامهم وشرابهم ولهوهم . وكأن هذه الطبيعة تسع في حيزها تلك
المظاهر المختلفة التي يظهر الناس بها : فمن مظهر للبر إذ تجد أما
رءوما تمتع صغارها بحاجاتهم من الرياضة واللعب ، ومن شيخ
وشیخة يشتركان معاً بين أحضان الطبيعة في جميل الذكريات
وفي تحية الوداع لحياتهما الآفلة ، ومن شاب وشابة يشتركان في
المتاع بسكرة الحب والنسيب ، ومن فاجر وفاجرة يعتزلان ناحية
تحت خمائل الأشجار ويتفتنان في أساليب الخلاعة والفجور .

وكان الكل لا يتناجون إلا همساً في حضن تلك الغابة
حيث خيل إلى أن صفوف الأشجار الباسقات كأنها حراس
شداد وقفت خاشعة إجلالاً لهذه الطبيعة الواسعة الرحمة التي
تفسح بين أحضانها مجالا للبر والفجور .

أن الطبيعة وسعت كثيراً ، ورحمة الله وسعت كل شيء ،

ولكن عواطف الإنسان وعقله قيدتها تقاليد وشؤون، فما أضيق صدر الإنسان إزاء السعة الطبيعية والإلهية .

فكرت ملياً في معاني الحرية وأخذت أنظر بين فهم الغربيين وفهم الشرقيين في تقدير الحياة ، ثم اعتراني تعب فشعرت بحاجة الجسم الى الراحة فألقيت به على تلك الأرض المفروشة بالعشب الأخضر وبما تساقط عليها من أوراق الشجر اليابسة وحسبت أن جسمي قد جن الى أصله في الثرى فوضعت صدرى على أديم الأرض ، ثم بسطت ذراعى كأني أضم بهما تلك الأم الروم ، وكأني كنت أقول إياه يا أمنا الأرض أن دمي ولحمي وعظمي وعصبي لني حاجة الى نفثة من تلك النفثات المنعشة التي تملئين بها ذراتك فتستحيل قوةً وحياةً . ثم عدت فجلست وحدت الى ما كان يبدو من السحب من خلال تلك الظلال الوارفة فوجدتها تتلبد رويداً رويداً وأخذ القوم حينئذ يهثثون شؤونهم ليعودوا الى حيث يلتجئون من غضب السماء إذا هي أمطرت ، وأخذ الموسيقى المتور يردد نغمات أخيرة خافتة خلتها أنشودة الوداع لذلك الصفاء الذي تمتعت الطبيعة به بالقوم حيناً قليلاً . . . ثم تساقط الرذاذ ثم تحول مدراراً .

— ١٠٥ —

ولقد كنت آخر من آب الى مأواه فى الفندق الذى أسكنه.
ولما بلغت خلت عني معطى المبلل ودخلت بهو المكان فوجدت
القوم ما بين عازف وراقص وسامر وصادح فأيقنت أنى فى قوم
يعامون كيف يحيون حياة طيبة ويستفيدون من أيام راحتهم
سواء صحت الطبيعة أم غضبت .

حيا الله الحياة وحيا الله قوماً يتقدرون معنى الحياة .

ميدلينج هنر بريل بالنمسا فى ٧ من سبتمبر سنة ١٩٢٤

دار ودار

أعرف في بعض مناهج القاهرة، غير بعيد من إحدى دور
الحكومة، منزلاً صغيراً محيلاً شاحب اللون . ومكاته بين
النازل الفخمة التي تحيط به وتواجهه كمكاته الرجل الهزيل الرث
بين قوم ذوى نظرة وبهاء، فلا يلتفت النظر حالهم بمقدار ما تلفته
رثاة ذلك المسكين .



لقد سكن هذا المنزل صديق لى كان فيما مضى متوسط
الحال . ولما فتح الله عليه وشال في جو المراتب تركه إلى منزل
آخر كبير، منبسط العرض منبعج البطن، واضح اللون،
نقى البشرة .



لعل صديقى لم يخالف سنة المألوف فأوسع على نفسه إذ أفاض
الله عليه الخير وخلي المسكن القديم لمن يتناسب حاله مع حاله
من تواضع وإقلال . ولعل ذلك المنزل لم يطرأ عليه منذ عرفته
شئ يذكر، لا في صورته، ولا في شأن أهليه، ولا في أمر
أصحابه فلم يُصَبْ بتر، أو شق، أو تحويل، أو تغيير، حتى

يحسن قوامه ويحمل منظره . ولعل كل ما أصيب به هذا المنزل منذ عرفته كان مرض الرطوبة ، فكان يعالج باستبدال أحجار غير التي بليت . وكان لا يفادره ساكن متواضع إلا ليحل محله ساكن يشبهه تواضعاً . وكان لا يبيعه مالك مقل إلا ليشتريه مالك مقل . ومجمل القول في تاريخ ذلك البيت أنه ذو بقاء طويل متشابه يحيط به الذكر الخامل .



لكن على مقربة منه قصر نفهم هو الآن دار لإحدى مصالح الحكومة . وأذكر أنى عرفته من نحو ربع قرن إذ أتيت لأول مرة من الريف إلى مدينة القاهرة ، ودخلته مع صديق طفل يتصل بوشائج القرى مع خادمة من خادمت ذلك القصر الذى كان يسكنه وقتئذ أهل العز والإقبال .

أجلسنا فى غرفة صغيرة ، وكان ذلك أول عهدى بنور الكهرباء فأخذت أعبت وألعب كما يعبت الطفل الرئى ، وأتسلى بإصدار ذلك النور فأدير الزر الكهربائى وأنظر وأدقق حتى جاءت قريبة زميلى الصغير وأخذت قسطها من مسامرتة ومداعبتة ثم انصرفت عنا وانصرفنا إلى حيث كنا نبيت .



مرت أيام وأيام ، وللأيام أدوات ومعاول تعمل بها في الكون
إصلاحاً وإفساداً ، وتشيداً وهدماً . فهدمت في تلك الدار
مظاهر العز والإقبال وورثها غير أهلها الأولين . ثم تقادم العهد
فوصل إليها الخراب فاغبرت وأصبحت لا تشرق بما كانت تشرق
به من بهجة وسعادة . ثم مرت أيام تلو أخرى ، فأغلقت أبوابها
وخزائنها على ما كان فيها من ريش وأثاث . ثم مرت أيام تلو
أخرى ففتحت تلك الخزائن وعرضت طنائفها وزرايها وانساب
في غرفاتها المساومون والدالون ثم مرت أيام تلو أخرى ، فابتاعها
الحكومة ودخل فيها المهندسون والبنائون وشقوا في جوانبها ،
وبدلوا في أوضاعها ، ثم مرت أيام تلو أخرى ، فسكنها مستخدمو
الدولة من العمال والكتاب والحجاب وأصبحت موضعاً تطؤه
أقدام الخاصة والعامة وكلهم يرى فيه له حقاً .

ومجمل القول أن هذه الدار تغيرت من حيث معالمها ، وتغيرت
من حيث أحوال أصحابها ! وتغيرت من حيث زوارها وقاصدوها ،
وفعلت بها الغير ما لم تفعله بالدار الضئيلة الأولى .

— ١٠٩ —



سبحان من لا يتغير . . .

نظرة إلى هاتين الدارين المتجاورتين تذكرك أن للمجد أجلاً
وإن طال وإخال أن الرفيع الذي دل ثم ذل ، واشمخر ثم اندثر ،
وشال به الإقبال ، ثم حط به الإقلال ، قد يحسد المتواضع الذي
يبقى على حاله طوال الأيام صابراً ولربه شاكراً .

القاهرة ٢٠ من يونيو سنة ١٩٢٥

حياة حول موت

في تلك المقابر، القريبة من قرى مصر، كثيراً ما تجد قبوراً
خربة متهدمة الأركان، متخلخة اللبنة، منغورة الجوانب،
كأنها ترمز إلى الموت في أبشع صورته من تهدم وتخلخل وتبعثر.
وقد تجد أشجاراً من النبق أو الجميز غير مشذبة الفروع،
ولا متناسبة الوضع، تظل هناك صهريجاً من الماء كأنه رمز
للأسف المقيم الدامع.

وان تلك الألوان البيضاء المغبرة، والألوان الطينية القائمة،
التي تظهر بها هذه المقابر، ليست من الجمال في شيء، فلا توحى
إليك بلغة الألوان والتناسب أن للموت عظمة ورهبة وجلالاً.

*
* *

لست أريد بما أسلفت أن أرسم لك صورة لتلك المقابر
الكرهية، ولا أن أمثل لك الموت في شكله مزدرى مهاناً، لكني
أفنتك إلى أن حول تلك القبور كثيراً ما تجد حقولاً يانعة بالنبت
الغض، وفيها طيور مغردة فرحة، وتجوب في أنحائها حشرات
مرحة، وفيها صفحة للحياة واضحة.

— ١١١ —

✠
✠ ✠

وهناك في حقل من هذه الحقول الحية ترى إنسانا حيا يعمل
في الأرض ، فيستنبت النبات ، ويعين الفصن النامي في وجهته
الى النور والسماء ، وينعش الزهرة للابتسام ، ويتعهد ما يبدو على
أديم هذه الأرض من مظاهر الوجود .

وإني لأسألك نفسى عن حال هذا الانسان بل أسألكها عن
قيمة تلك الحياة البشرية التى تكد وتكد حتى وهى قاب قوسين
من تلك المقبرة .

✠
✠ ✠

ليست حياة الانسان أن يقنع بما يشترك فيه مع آخر
الكائنات من غذاء ، وغو ، وسعى ، وتناسل . لكن الحياة
لا تكون حياة إنسانية إلا إذا تيقن الفكر البشرى بمنزلته من
عالم التفكير .

يقول بسكال : « خطر أن تظهر للمرء أنه شبيه بالأنعام من
غير أن تظهر له عظمته ، وإنه لخطر كذلك أن تظهر له عظمته
من غير أن تظهر له حقارته ، وأخطر من هذا وذاك أن تتركه
في عماء من عظمته وحقارته . ولكن من المصلحة أن تظهرها

له جميعاً » فهل يعلم هذا الفلاح حقاً قيمته من هذا الوجود . ؟
 وهل يعلم حقاً نصيبه من عظمة أو مهانة ، وما له في هذه الأرض
 من مكانة وهل ترج حياته حقاً في عداد الحيات الطيبات ؟
 وهل يحشر موته حقاً في زمرة الموت المستطاب ؟
 كما أن بعض الموت قد يصير ينبوعاً لعيش رغد منير فان
 بعض العيش يكاد يكون موتاً مظلماً كريهاً .

✱
 ✱ ✱

تعس من يعيش عيشاً لا خير فيه ، وتعس من يموت موتاً
 لا خير فيه !!
 وما أقسى حياة تلوح كأنها الحياة تعمل وتكدح ... ولكن ...
 قاب قوسين من هذه المقبرة .

القاهرة في ٢٧ من يونيو سنة ١٩٢٥

طيف زائر

زارت دارنا منذ أيام عجوز انقطعت بين دارنا وبينها أسباب
التزاور منذ عهد بعيد يرجع إلى زمن طفولتي ، إذ كنا في بلد
غير هذا البلد ، وفي دار غير هذا الدار ، وفي محيط غير هذا المحيط
وكانت دنيا حينئذ في أخلاقها وفي شئونها غير دنيا هذه الأيام .
ولست أدري أى ظروف هيأها القضاء لهذه الشيخة الفانية
فجاءت إلى مدينة القاهرة ثم علمت أين نسكن ، وأين نكون
من غير الدهر وأين نكون من أمور الحياة .

لم يعرف زائرنا صغار المنزل الذين ولدوا تحت سماء غير السماء
التي أظلت طوال الأيام تلك الزائرة ، لكن لم ينكرها عجائز البيت
رغم ما اتصل بسحنهم من توالى السنين .

ولقد توخيت أن أكون بحيث لا يعطل مجلسي ما قد ينشأ
بين ممثلات الماضي من حوار ، وبحيث أستطيع أن أسمعه أملاً
في أن أجد درة تكون في طيات تلك الأحاديث المتهدجة ، وربما
يعثر المرء على موعظة بالغة تلقيها حاملات الليالي والأعوام .

بقيت طويلاً على هذا الحال أتسمع من القول ما يتصل
بعضه بذكريات حياتي الماضية وخيل إلى أن كل ذكرى

كانت تنقلني بأسرع من لمح البصر ، فتقطع بي شوطاً بعيداً
إلى حيث أحل بالماضى الذى أسكن اليه ، وأسعد لحظة بصورته
البسامة الهادئة .

ولما حانت ساعة نزولى من الدار ارتديت ملابسى وخرجت
وفى أذنى صدى لحديث العجائز ، ثم اتخذت سبيلى المعتاد فى
حارة ضيقة من حارات الحى الذى أسكن فيه وهناك لقيت شيخاً
معمماً بعمامة حمراء ، مرتدياً جلباباً أزرق ، ذا لحية لم يكمل بياضها
ولم يغادرها قليل السواد ذا وجه فيه علامات الصبر والأسى ،
يده أصابع يدق بها دقاً موسيقياً لطيفاً على السمع ، وينشد
ضروباً من الأناشيد القديمة التى تخرج من صدره أكثر أنغامها
وأقلها يخرج من حنجرة تستبق شيئاً من عنفوان الشباب وورته .



وقفت من الحارة فى موضع أسمع فيه صوت الشيخ الشادى
وأتابع بنظري حركاته ، وأوطن سمعى لما يحمله الهواء من أغانيه
ونبراته التى كنت إخالها لشبح من أشباح الماضى البعيد . ثم
انعطف الرجل فى منعطف ، فتوارى عن بصرى ، وانقطع صوته
عن سمعى ، ولم يبق منه الا الصدى الضئيل .

— ١١٥ —

حينئذ مضيت ولكن تذكرت أن الفرد لا تكمل شخصيته
إلا إذا اتصلت حياته بما يربطها من الماضي بذكريات ، وأن
الأمم لا تكمل قوميتها إلا بما يذكرها بالغابر ومشخصاته البائدة
وما أتعس امرأ يهون عليه ماضيه ، وما أشقى أمة لا تستبقى من
تاريخها طيفاً يزور .

الغاهرة في ١١ من يوليو سنة ١٩٢٥

حول ما لله

أن بعض بيوت الله من مساجد ، ومعابد ، وكنائس ،
تجدها نخمة البناء ، عالية الأركان ، فيها الزرابي المبوثة ، والآنية
النفيسة ، والتحف الثمينة . وفيها مظاهر الفن والزخرف ، وما
تشبهه نفوس الطامعين . وقد يؤم تلك البيوت قوم من الناس
وهم في مظاهر وجاهتهم وأبهتهم فتنتظرم على أبوابها السيارات
الفاخرة والخيول المطهمة .

وتجد في بعض الحقول ، وعلى حافة بعض النهرات التي
تجري في هذا الوادي ، مسطحاً صغيراً من الأرض فرشت عليه
أعشاب وحشائش مجففة ، وله شبه سياج من غصون الأشجار
وفروعها . وهناك ، في وقت الأصيل قد تجد فئة من عمال الحقول
يستقبلون قبلة الإسلام ويصلون لله في بساطة ، ويسجدون
لجلاله في خشوع ، ويذكرون اسمه لا في عنت القول ، ولا في
تكلف البيان .

عند ما أتمثل صورة تلك المعابد الضخمة وبعض زوارها
وروادها ، ثم أتمثل صورة ذلك المصلي الذي يهينه الفلاحون في

ناحية من حقل ، أو على مقربة من غدير أنذ كر بعض ما يروى
من آثار اليونان الأقدمين من أمر الزلفى الى الله ونية المتزلفين .



يذكر « فرفريوس » أن أحد سراه « تساليا » قصد الى معابد
« دلفوس » ليتقرب الى ربه وبما أعده لذلك مائة من الثيران
مذهبة القرون .

وبينما كان هذا الغنى عند المعبد بمظاهر جبروته ووجاهته
إذ أتى رجل فقير من أهل « هرميون » فاقترب من المذبح وأخرج
من جعبته الحقيمة قبضة من الدقيق وألقى بها فى لهب النار المتوقدة
عند المعبد . عندئذ أعلنت السادنة ، التى كان ينتظر الناس قولها
فى أى القرايين كان عند الله أكرم ، أن ربها قد تقبل بقبول
حسن قبضة الدقيق من فقير « هرميون » ولم يكن ذلك نصيب
القرايين التى ساقها سرى « تساليا » .



ولقد يتخذ أهل الأخلاق من مثل هذه القصة بعض أدلتهم
فى الحكم على قيمة الأعمال بما يتصل بها من النيات . فذلك
الذى كان يتزلف الى ربه بمظاهر كبريائه دون أن تخلص نفسه

من عوامل المفارقة كان أبعد من الله من ذلك الذى تقدم له
بالقليل مخلصاً . وأحسب أن هذا العامل القروى الذى يفرغ من
عمله فيذكر ربه وحيداً منفرداً هو أدنى إليه من هؤلاء الذين
يقصدون إلى بيوتهم العالية ليعلنوا للناس أنهم تقاة وليظهروا
للناس أنهم من الصالحين . وأخال أن كثيراً من هؤلاء الذين
يتظاهرون بغيرتهم على دين الله وعلى ما لله فيصيحون ، ويهولون ،
وينادون لنجدته ، ويحفزون لنصرته ، هم أبعد من الله من شيخ
مخلص يرشد في السرى ويصلح في السكون .

††
††

أن لله صدق النفوس ، وأنه لفي غنى عن المساجد الفخمة
والكنائس الضخمة ، وأنه لفي غنى عما يساق إليه من ابتهالات
منمقة ، وصلوات غير صادقة ، وأنه لفي غنى عن ضجة تقام كأنها
لوجهه أو كأنها لنصرة دينه ما لم يلبسها حسن النية وإخلاص
الضمير .

القاهرة في ١٨ من يوليو سنة ١٩٢٥

رحاب العلم ورحاب الدين

منذ بضعة أيام نقلت لنا الصحف الأمريكية أن في إحدى ولاياتها صراعاً جديلاً قد احتدم بين طائفتين إحداهما تنصر مبادئ الدين والأخرى تدعو لمبادئ العلم وتنصر مذهب أهل النشوء والارتقاء. ومنذ أيام تقرأ في صحف بلادنا مقالات بعضها من مؤلف كتاب «الاسلام وأصول الحكم» وأنصاره يذهبون إلى أن دين الاسلام لا شأن له بمسائل الخلافة ، ولا بصورة خاصة من صور الحكم ، والبعض الآخر يكتبها طائفة من رجال الدين ينكرون على المؤلف ما ذهب اليه ويدعون إلى اخراجه من حظيرتهم لأنه فكر على أسلوب غير أسلوبهم ونظر في بعض المسائل على وجه غير الذي به ينظرون .

*
* *

ولقد بين لنا التاريخ أن كل عصر من العصور لا يخلو من جدل عنيف بين رجال طائفة بعينها . فقديمًا تجادل رجال الدين فيما بينهم ، وقديمًا تجادل رجال العلم فيما بينهم ، وقديمًا نزع بعض رجال الدين إلى أن يخرجوا بعضاً آخر من حظيرتهم ، وقديمًا نزع

بعض رجال العلم ألا يعترفوا بعلم آخرين خالفوهم في رأيهم ونظروا
الى الأمور بنير نظرهم .

ولم يكن منشأ هذا الجدل العنيف الذى لم يخل منه عصر
ولم تتبرأ منه أمة إلا قصر الأنظار وضيق الصدور .

كأن الجامدين من أهل العلم أو من رجال الدين قد لا تصل
أبصارهم أحياناً إلى لآلاء تلك الحقيقة التى يتألق بها كل شيء
فى الوجود ، والتى تظهر أن طرائق الافهام تتحول . وكأن فى آذانهم
وقراً فلا يسمعون صدى المنطق السليم يردد أن رحاب الدين
الحق واسعة ، وأن رحاب العلم الحق واسعة ، وكأنهم يحسبون أن
القبالب التى صبوا فيها آراءهم حيناً من الدهر تظل على حالها رغم
كر الدهور ومر السنين .



إن من أهل الدين من يعرف لله تعالى أسماءه الحسنى فيصفونه
بالرحمة ويصفون رحمته بالسعة ، ولكنهم يحدون أفقها بمقياس
أبصارهم القصيرة . وإن أهل العلم ليعرفون أن جبل العلم ممدود
وأن مداه غير محدود ، ولكنهم قد يتعنتون أحياناً فلا يريدون
أن تسمو الأنظار الى رقي ما هو محتمل .

— ١٢١ —

ولو أنصف أهل الدين وأهل العلم جميعاً لرأوا أن للدين
الصحيح وللعلم الصحيح رحاباً يستطيع أن يأوى إليها كل وارد
وأن يلجأ إلى ميادينها كل قاصد من غير اصطدام أو زحام .

ألا أيها الجامدون لا تضيقوا رحاباً بسط الله جنباتها للواردين
ولا تسدوا أبواباً فتحها الله للقاصدين .

القاهرة في ١ من أغسطس سنة ١٩٢٥

الغيبة والبهتان

رذيلتان فاشيتان في الناس ترتكزان على أسوأ خلال البشر ،
وأكثر ما تعتمدان عليه : الجبن ، والحقد ، والحسد .

رذيلتان إحداهما مثلها مثل الوقح الذي لا يبالي أن يسترأمام
الغير ما به من مظاهر القحة والسماجة ، ولا يستحي أن يبرز
أمام الأنظار بما يلبسه من عيب ظاهر . والأخرى مثلها مثل
الاص الذي يتامس لنفسه من الظلمات فخبأ يسكن اليه بما سلب
وهناك يلقى غنيمة ، ويدور يبصره فيما حوله من الخوف ، وتحتفظ
عيناه من الحذر ، وكلما ذكر أنه سارق دق فؤاده فزعاً وجزعاً .

أما الرذيلة الأولى فهي رذيلة الغيبة : وهي أن تقول في
الناس من خلفهم ما يؤذيهم ولو كان حقاً .

وأما الثانية فهي رذيلة البهتان ، أو الاختلاق وذلك أن تقول
في الناس ما يؤذيهم وأنت تعلم أنك غير صادق فيما تقول .

*
* *

للإنسان أن يستمتع بين من يعيش فيهم من الناس بحسن
السمعة ، وباحترامهم له ، وبمطعمهم عليه ، وذلك لأن الإنسان

مدنى ومن طبيعة المدنية أن يعايش الإنسان بنى جنسه ويعنى بتقديرهم إياه ، وصلتهم به ، ورعايتهم له .

لكن لهذا الإنسان نزعة الفرد ، وحق الفرد ، وحرية الفرد ، وهو يريد أن ينعم بذلك الحق فى مدى واسع لا يفقد معه حقه المتصل بنتائج مدنيته من عطف ، وتقدير ، وصلة ، ورعاية .

على ذلك يكون من الخير وحسن التوفيق أن يحتفظ الإنسان بحقه الفردى فى الحرية وبحقه المدنى فى حسن الصلة بالناس .

وعلى ذلك أيضاً لا يكون من الخير فى شىء أن تسمى إلى أحد فى سمعة حسنة اكتسبها ، وليس من الخير فى شىء أن تحول عنه شعوراً عاماً تألف لجه .

وليس من الخير أن تخلق النفرة بينه وبين يئته أو تجعل التقاطع بينه وبين عشيرته ، وليس من الخير أن تحول بينه وبين إشراق وجوه تلقاه بحية وابتسام .

إنك إن فعلت كنت مغتاباً وما كان الله ليرضى عمل المغتابين .

✱

✱ ✱

رب مغتاب يلبس مسعاه مسعى الأخيار ، وينتحل المعاذير ليتشبه بأهل الحق ، فيقول إني أظهر للناس عيباً فى أحدهم قد

خفي عليهم ، وأظهر للناس صورة ما كانوا يعرفوها على وجهها الصحيح .

ولو أن هذا المغتاب يريد الخير صدقاً لاتخذ الوداد ، قبل المخاصمة والعناد . وأخذ بأسباب الإصلاح قبل أن يشهر العداوة والسلاح ، ولأسرله النصيحة فيما يرى من العيب قبل أن يفشيه جهراً وعلانية ، فلربما كانت في إفشاء العيب رذيلتان : رذيلة الاغتياب ، ورذيلة الافشاء .

*
* *

أيها الناس ، لا تقولوا جهاراً على فلان ان شذ أو خرج لتؤذوه ، ولا تقولوا على فلان انه أساء لتضروه ، فانكم تبوءون باثم المغتاب ان كان ما تدعون صدقاً ، وتبوءون بجريرة المخلق الاثيم ان كان زوراً وبهتاناً .

حقوق الافراد

لعباد الله من الله حقوق يجب أن تصان . لهم حقوق أساسية هي الأصول لكل ما يتفرع عنها من حقوق ، وهي التي يترتب عليها كل ما يطالب به الإنسان من واجب .

لعباد الله من الله حق الحياة فواجب عليهم صيانتها وعدم العبث بها حتى تستخدم لما جعلت له من واجبات هذا الوجود .

ولعباد الله من الله أن يكونوا أحراراً في مظاهر عيشتهم ومسعاهم ، وذلك لأن الذي يريد أن ينعم بهبة الحياة لا يستطيع أن يعمل حسبما تقتضيه شؤونها وظروفها إلا إذا كان حراً طليقاً لا يعطله عن أفعاله معطل ، ولا تقف عقبة في سبيل شعوره بأنه الفاعل لما يفعل ويريد ، وأنه المسئول عما يهيم به ويفعله .

ولعباد الله من الله أن يكونوا أحراراً في إطلاق ملكاتهم المفكرة تسير في داراتها كما تسير في الفضاء الواسع تلك الشمس والأقمار لا تتقيد في سيرها إلا بسبلها الخاصة من أساليب المنطق السليم ومناحي النظر المستقيم . ولتلك الملكات البشرية أن تتوغل ما استطاعت وما طاب لها التوغل في مسالك المنطق

والنظر . وما كان العقل لابن آدم إلا ليتعلل به ، ولم تكن له ملكات التفكير إلا لتؤدي وظيفتها من بحث وتفكير .

##

تلك هي حقوق الإنسان الأولية التي تستلزم واجباته الأولية فحقك الذي ترعاه من الحياة يدعو إلى تقديرك للواجب نحو الحياة وحقك الذي ترعاه في أن تكون حراً في سعيك يدعو إلى واجبك في تقدير حرية السعي والعمل . وحقك في أن تعتقد وأنت حر ، وأن تفكر بحرية ، يقضى بواجبك في تقدير عقائد الغير وحرية الغير في التفكير .

تلك حقوق لا حد لها إلا حق الغير فيها ، وأن كل تضييع أو تقييد في تلك الحقوق أو في بعضها هو تقييد في إنسانية الإنسان أو في بعض ما له من معنى هذه الإنسانية .

أشد ما يؤلم امرأاً يقدر حقوق الإنسان ، ويرعى حقوق الفرد أن يجد من قوانين الجماعات ، أو نزعات الحكومات ما يتعارض وتلك الحقوق فالتقانون الذي يطول بحده القاسي فرداً يستخدم حقه الطبيعي في حرية الرأي ثم يحول بينه وبين الحق المدني في العمل والسعي لهو قانون يتنافى وأصول الحقوق الطبيعية .

وأن النزعة التي تنزع إليها الجماعات في تضيق ميدان التجاذب ،
والتألف ، والتسامح ، بينها وبين أفرادها هي نزعة قاسية لا تتفق
وتتقدم الإنسانية ورفق الأمم وإن النزعة التي تنزع إليها الحكومات
أحياناً في أن تبيع لنفسها ولأنصارها حرية التصرف والسعي
والعمل ثم تنكرها على خصومها هي نزعة قاسية هادمة لأقدس
الأصول في حقوق الأفراد ومصلحة الجماعات .

فيا أنصار الحق طالبوا بحق الإنسان حين يشعرون بخطر
يهدد حق الإنسان . ويا أشياع الحرية انشدوا الحرية ما شعرتم
أن الحرية الصالحة الصحيحة في خطر .

١٥ من أغسطس سنة ١٩٢٥

الجمود

للجامدين أذهان ليست كالأذهان ، ولهم قلوب ليست كالقلوب ، ولهم نفوس ليست كالنفوس .
فأذهانهم لا تمتد إلى ما يمتد إليه النظر الواسع ، ولا تنسجم حركاتها حيث تنسجم مقدماته ونتائجها .
وقلوبهم لا تشعر بما تشعر به القلوب فلا تحس ألوان الجمال المتصلة بمظاهر الخلق ، ولا تتأثر بضروب الأحداث التي تختلف في هذا الوجود ، ولا تحقق آيات الله في السموات ، ولا تحقق آيات الله في الأرض ، ولا آياته المطوية في كرم العصور وعبر الدهور .

ونفوسهم محجبة وراء سجوف من السواد ، لا يصل إليها ضوء من الأنوار المتلاثلة في نواحي الكمال ، ولا تنبعث فيها حرارة الإيمان بالتقدم والخير ، ولا يستعر منها قبس لنار الهمة المتحفزة للأمام .



ان طبيعة الذكاء أن يتناول إلى شئون هذه الحياة ليحوزها بالفهم ، وينبسط إلى الأمور ليتصل بها بالمعرفة ، وطبيعة الجمود

أن ينقبض عن أشياء هذا الوجود وينصرف عنها . والجامدون
ينكشون إلا عما ألفوه ، وينقبضون إلا عما ورثوه .

إن أظهر ما يمتاز به الإنسان عقله الذى يبحث به وشخصيته
الضاربة جذورها فى الماضى ، القائمة سيقانها فى الحال ، الممتدة
فروعها وغصونها للمآل .

فالبحت إذن هو من خواص العقل ، والانسياق مما هو
حاصل إلى ما هو متظر ركن من أركان الشخصية البشرية ، والعقل
والشخصية كلاهما ميزة ابن آدم . لكن الجامد يعطل عمل العقل ،
ويكبل نزعات الشخصية ، ويقص جناح التطلع ، وأكثر أعماله
وحرركاته قد تتصل بالعادات ، والمألوفات ، والعرائر .

وعندى ان أهل الجحود هم أدنى إلى معانى الموت منهم الى معانى
الحياة الصحيحة : وذلك لأن شأن الحياة الصحيحة أن تظهر فيها
الحركة متصلة غير مقطوعة ، ومتشعبة غير مركزة ، وتتفاعل
مظاهر الحياة بعضها مع بعض على مدى واسع غير محدود .
لكن الجامدين لا يتصلون بالحياة إلا من بعض جهاتها ، ولا
يفسحون نفوسهم لأطرافها المترامية .

— ١٣٠ —

*
* *

للجمود عصور يشتد فيها أمره ، وتقوى فيها زمره . وقد
تكون تلك العصور هي عصور الجهالة والانحطاط ، وتغلغل
طبائع الاستبداد ، ودنو الشعوب من الشيخوخة والمهرم .

وفي هذه العصور يكون مثل الجامدين مثل الطفل الذى
قد يريد به أبواه خيراً فيسرعان ليحولاً بينه وبين غذاء فى عناصره
سوء فيغضب الطفل ويصيح ويبكى ، وكذلك أهل الجمود فإنهم
يفضبون ، ويهلعون ، ويجزعون عند ما يراد بهم الخير ، لأنهم
قد لا يعقلون التمييز بين ما يضر وما ينفع .

*
* *

لكن الأطفال تساس أحياناً وتؤخذ باللين ، وتقهر أحياناً
وتؤخذ بالقسر . وفي عصور الانتعاش يجب على المجددين أن
يعلموا كيف يساس أهل الجمود .

الجمود فى الأم شر وأذى واثم ، فخاربه إن وجدتموه .

القاهرة فى ٢٤ من اغسطس سنة ١٩٢٥

الى الفتيات المبعوثات

... وكما أن الحاضر من الأيام يمثل لنا أحياناً صورة من صور الماضي فتكاد تحسبه الماضي دون أن يكونه ، كذلك قد تمر بوجه السماء المشرقة سحابة فتحسب أنك في فصل الغمام دون أن تكون فيه ، وكذلك قد تذرف العيون دموعاً رطبة ، وقد يتهدج الصوت بنبرات متقطعة فتحسبك محزونا دون أن تكون كذلك حقاً .



تذكرنا الماضي البعيد حين ذهبنا إلى الشغل لنودع فتياتنا المبعوثات في سبيل العلم ، فثلث في خيالنا تلك الأيام إذ أرسلنا مع زملاء لنا في ذلك السبيل ، وشهدنا صورة من تلك الصور التي شاهدناها بالأمس من مظاهر الدعوات الخالصة ، والقبلات الطاهرة ، والوداع الشديد وسمعنا من الآباء مثل ما سمعنا بالأمس تلك الوصايا يزود بها الأبناء والأبناء مطرقون احتراماً ، وكأن رءوسهم تتخفّض لما يلقى فيها من ذهب ثمين ، وإن خلاصة ما شهدنا وسمعنا تنحصر في دائرة من المعاني لا تخرج عن معنى الايمان والشرف والوطن .



لم أنس من ذكريات الأمس البعيد شبح ذلك الشيخ الأسمر
النجيف يقدم عند الوداع لأحد أقربائه من زملائي كتاب دينه
المقدس فكأن آخر ما أوصاه به أن يذكر ربه ولو نسي كل شيء
وقد رأيت بالأمس القريب آباء فتياتنا وأمهاتهن يقدمون لهن
المصاحف ويوصونهن بذكر الله وما أجدر قلب الفتاة الطاهرة
أن يعمره ذكر الله الكريم .

وقد سمعت بالأمس القريب ، كما سمعت بالأمس البعيد ،
المودعين يذكرون فتياتنا بالخلق وبالشرف وما أجدر نغمات
الشرف بأن تعم أذن الفتاة وما أجدر الشرف أن يذكره الذاكرون
لمن نبتن في الشرق وعشن في نوره وآلامه .

وقد سمعت بالأمس القريب من الآباء كما سمعت بالأمس
البعيد ذكر الوطن وللوطن على أبنائه واجبات ، وللوطن على أبنائه
حقوق ، ومرحى لمن يؤدي للوطن حقاً وهنيئاً لمن يقوم له بواجب .



ان ذكر الله ونجوى اسمه عند السفر وحيال النازحين أمر
قديم قد عرفناه وألفناه ، والوصية بحسن الخلق وكرم السيرة عند

السفر وحيال النازحين أمر قديم قد عرفناه وألفناه ، وذكر الوطن
والوصية بعزته ومجده عند السفر وحيال النازحين أمر قديم قد
عرفناه وألفناه . لكننا لم تألف قبل هذا الأمس القريب تلك
الدموع الغالية ترسلها تلك العيون ، وتلك الزفرات تفيض بها
صدور يملؤها الحنين ، لم تألف مرأى عرائس النيل المخدرات
ينزحن في سبيل العلم والوطن .

ايه يا فتياتنا ان الوطن المتحفز للحياة يرسل أبنائه في سبيله
جيلاً بعد جيل فتفنى الأجيال لرفعته وهو خالد، ويرقى على مجهودات
أبنائه التي تتكدس تحت قدميه وهو صاعد .

ايه يا بنات النيل سلام عليكم ما حفظتن للنيل عهده .
وأديتن الأمانة وشرفتن الكنانة .

سلام عليكم ما قدرتن الشرف والوطن وان الوطن بمن فيه
من فتيان وشيب فداء لشرف فتياته وأمهاته .

*
* *

لا تنسين تلك الأوراد التي قرأها لكن الأمهات قبل أن
تبرحن أرض مصر . ولا تحقرن تلك التماثيل التي أوصاكن بها
أمهاتكن الطيبات الصالحات ، واتلون تلك الأدعية التي أوصيتن

— ١٣٤ —

بتلاوتها !! أتدريين ماذا تفيد تلك الأوراد ولأى شيء ترمز حقاً
تلك التماثيل ؟؟

إنها ستصرخ في آذانكن بأنكن من قوم لهم ماض وتقاليد
وان للماضى عليكن ان تطورنه ولكن لا تحقرنه .

*
* *

يا فتياتنا المبعوثات من مصر وخير مصر ، انكن ترسلن إلى
بلاد طالما حاكى نساؤنا نساءها فيما لا ينفع فحباكينهن أنتن فيما
ينفع واقدمن الينا بما يفيد .

قد تقنع منكن بالقليل من العلم الناصح الصافي ، ولكن
لا نرضى أن تقدمن الينا إلا بالكرامة كلها ، وبالشرف كله ،
فارجعن به كاملاً أو متن في سبيله .

القاهرة في ٣ من أكتوبر سنة ١٩٢٥

حول الديمقراطية

لصغار اليوم ورجال الغد

يوم الخميس ، أمس الأول ، كان على أن ألقى درساً في مدرسة المعلمين وفي ساعة يعقبها انصراف الطلاب إلى دورهم . وما هو إلا أن ألقيت درسي حتى انحدرت إلى منزلي من غير إبطاء . وبينما أنا في طريق مسرعاً ، إذ حانت مني التفاتة عند مدرسة المنيرة الابتدائية ، فوجدت سرباً من صغار التلاميذ يحومون حول شاب طويل القامة ، رث الثياب ، قائم اللون يتحرك بينهم حركات تتم عن ضجر ، دون أن تبدو على وجهه الأشعث الأغبر علامات الغضب ، بل كان يبدو في ثنايا سحته المظلمة البائسة شيء من العطف غير يسير . وكأن هؤلاء الصبية يحومون حوله كما يحوم النحل حول شجرة باسقة ، ولأصواتهم أزيز يشبه أزيزه ، ويرسلون أكفهم الصغيرة لشيء بين كفيه الضخمتين القويتين إرسال من يريد أن يخطف شيئاً عز عليه أن يناله .

*
* *

مر بنفسى خاطر من السوء نحو هذا الفتى الوضع طبقة فى
عرف الناس ، ودفعتنى عواطف أبوية ، بل دفعتنى مهنة المعلم الى
أن أقصد إلى هذا الجمع من التلاميذ لأتبين سره وغايته ، وأعمل
عندئذ بما يوجبه الى واجب المرشد إزاء ما يستجلى من أمر .

لما تقدمت الى الجمع صاح الفتى « الديموقراطى » بصوت
أجش : إنها مثنان ! ! مثنان قد نقدتا فى هذا المكان . والله انها
مثنان ! وأصوات الصغار تردد متقاطعة : هات واحدة . بل
هات واحدة . انا لم نأخذ منك ولا واحدة !

ولما رآنى الفتى مقبلاً عليه مد الى يمينه من فوق رؤوس هذا
الجمع بشيء مما معه ، فتبينت إذ ذاك أنها كراسية يضاء عليها
إعلان لاحدى دور الصور المتحركة ، وان الصغار يتهافتون
ليصيبوا من هذه الكراسيات التى توزع بلا ثمن ، وان الفتى
المنكود المكدود يقوم بما سخر له من توزيع الاعلان بذمة ونشاط .

*
* *

حينئذ بدد ضياء الحقيقة ما هجس فى خاطرى من سوء
الظن ، وفاضت نفسى بعطف سابغ حول هذا الجمع البرىء ،

— ١٣٧ —

وتمنيت لهؤلاء الصبية الصغار الذين هم عقول المستقبل ، وضيأؤه
وعدته ، أن يديهم هذا المستقبل من ذوى الأذرع العاملة
المتجين ، فيلتفوا حيال الديمقراطية ، إيماناً بما عندها من خير
وثمر ، كما يلتفون اليوم حول واحد من ممثليها التعساء ، ويتخاطفون
بغبطة ما تمده اليهم يده المتعبة العاملة ! !

الفاخرة في ٧ من نوفمبر سنة ١٩٢٥

فكر سجين

بعد يوم كد فيه الذهن ونصب ، وبعد ليل قضيت بعضه
 في حوار عنيف يثير في النفس همًا وغيرةً يجهود . عدت
 إلى داري بنصيب من الحمى لا أدري أهو عند أهل الطب
 ما يسمونه حمى الأوصاب ، أم هو ضرب من ضروب الاضطراب ،
 تلقيه إلى جنبات هذا الجسم أمواج في النفس فتظهر ما في قرارها
 من عناصر الألم ، والاشمئزاز ، والثورة على ما يغيظ ويوجع من
 حوادث هذا الوجود .



عملت الحمى عملها من العبث براحتي ، وصدت النوم عن
 جفون كانت في حاجة إلى أن تنطبق عليه . ولبعض أنواع الحمى
 نسيج من الذكريات والتفكيرات طالما تشابهت مع ألوان من
 الهذيان ، دون أن تكون عناصرها حقًا من الهذيان . لكنها
 أمور قد تكونت من آثار الحياة الواقعة ، وتسربت إلى أعماق
 النفس ، ثم توارت في هذه الأعماق ، واستكنت فيها زمناً والعقل
 في غفلة عنها ، ثم طففت تحت تأثير عارض من الأعراض وكثيراً

-- ١٣٩ --

ما تعين بعض أعراض الحمى على ظهورها ، وكثيراً ما يكون القلم
الدقيق أداة لاقتناصها .

✽
✽ ✽

كان أول ما شعرت به طافياً في النفس بعد غفوة من غفوات
آخر الليل شبج الحرية ، وصورة الحياة الحرة ، واستدعت تلك
الصورة معها ما قد يعتور الحرية من عقبات تحول بينها وبين
عشاقها وأنصارها ، فظهرت أمامي تلك القيود التي تشد القلم
وتثنيه عن الكتابة فيما يذهب إليه ، ومثلت أمامي تلك العقد
التي تعقد اللسان وتلويه دون قصده من الحديث فيما يريد ،
وصورت أمامي تلك الحواجز والاعتبارات التي طالما حالت بين
الإنسان وبين ما ينزع إليه من أقوال وأعمال .

وما كان أفضعها من صور وأنا في الليل وبين الوحدة والهم
والألم !!

حوادث تمر علينا سراعاً والحياة تمضي سريعة ، فوددت
لو ظفرت بالأسباب التي تهيج لي أن أسجل عن تلك الحوادث
رأياً . لكن ما في النفس من رأى يحتبس كما تحتبس الزفرات
في عين المغيظ .



تركت فراشي وأشعلت النور ، وتحولت إلى حيث تكون
الدواة والقرطاس ، وجلست جلسة المتحفز للكتابة ، وقلت في
نفسى لن تثنينى قيود الوظائف ، ولن تثنينى آراء الناس عن أن
اكتب ، وأن أتكلم ، وأن أذكر ما يختلج فى نفسى وأن أظهر
ما انطوى فى الضمير ، ثم أخذت فى الكتابة وكان القلم مجدداً
مسرعاً فى كلمات تحوم حول ذلك المعنى : لم تقيدون الحرية ولا
تحلونها ولا تشعرون بخيرها وبركاتها وهى تسير فى الأمم سير
الحياة فى النبات الزاهى فتجعل فى الوجود ابتساماً ؟ .

وبعد أن مضيت فى الكتابة على هذه النعمة عدت فتذكرت
ان للجرائد قيوداً ، وان للكتابة قيوداً ، وأن ما أريد أن اكتبه قد
يدخل فى دائرة تلك القيود القاسية ، فزقت ما كتبت وعدت
إلى سريرى ثم قلت فى نفسى : سأعقد اجتماعاً لأتكلّم وسأسير
بلسانى فى المجالس فأذكر ما أريد أن أذكر ، وأبشر بما أريد أن
أبشر به ، وأدعو إلى ما أريد .

على أننى تذكرت أن فى المجالس عيوناً طالما سمعت بالناس

إلى الشر ، وطالما أساءت إلى البريئين من حيث لم يكونوا
يحسبون لها حساباً .

رباه ولكن في النفس آراء محتبسة تريد أن تجدها في الخارج
متنفساً والخارج وأسفاه تملؤه الحواجز والعقبات وتحدده الحدود .

††
††

ثم أخذت أحاسب نفسي وأقول أهو حرص على مال ،
أم هو حب في منصب ، أم هو اندفاع في سبيل لذائد الدنيا ،
أم هو خضوع لحاجتها وترهاتها ، كل ذلك ألهانا عن أن نسير
في الآفاق لتلمس الحياة الحرة حيث تكون .

ثم قلت في نفسي إني أصبحت قادراً على أن أباعد بيني وبين
كل شيء ، وأن أترك كل عزيز ، وأبين هذه الدنيا ، لكنني
تذكرت أربطة ذهبية ثقيلة تربط رجلي ، وتجعلني أحن الى
حياتي التي أنا عليها وفي سبيلها ألين .

††
††

شعرت بضغنى الجسمي ، وبالحرارة والاضطراب ، وبالأفكار
المحتبسة تضغط صدري وكان الفجر على وشك أن يحين ، وفي
أفق السماء نجم متلألئ كأنه يشير الى أن لا حرية في هذه

— ١٤٢ —

الأرض، وكأني كنت أخطبها قائلاً متى يا كواكب السماء وأنت
تبدین لأبصارنا منيرة، ولآمالنا رموزاً لعوالم لا يشوبها الفساد،
متى يا نجوم الليل تطلق نفوسنا السجينة من سجونها وقيودها
ونعيش في عالم مرتفع حرشبيه بعالمك السماوى المنير؟

القاهرة في ٢٨ من نوفمبر سنة ١٩٢٥

صورة من صور النفاق

على شفثيه ابتسامة وأسارير وجهه مشدودة ليبدو منها لون
من ألوان الاشرار ، ويلوح على محياه طلاء من البشر . لكن
في قلبه سواد ، وبين جنبيه عتمة وسحاب ، وفي صدره إفراز من
الخبث ينفضه في حديثه كما تنفض الأفاعى سمومها في الماء النير .

هو في ساحة الأمير يدعو للأمير بالنصر والتأييد ، ويتشدد
بمظاهر الحب والولاء ، وهو في حضرة الوزير يقول لقد انفرد
مولاي بالاصلاح ، ولم يتخذ لاعماله إلا مدارج الفلاح ، فإذا هوى
عن ساحة الأمير ، وانحدر عن حضرة الوزير ، أخذ يهجم مع
الهاجين ويتقدم مع الناقدين .

قد تجده أحياناً يختلف إلى القهوات والمجالس ليختلط بمن
لا يحب ولا يتفق وإياهم من الناس فيسايرهم ، ويلين في القول
كأنه في اغتباط ، وتحول أضواء ابتسامته البراقة بين فراسة
محدثيه وبين أن يروا ما ظل في أعماق نفسه مستوراً .

تلك هي صورة المنافق الذي يبدو في الحياة بلونين ، ويتشبه
بشبهين ، ويبدو ظاهره مغايراً لباطنه .

يقطع المنافق في هذه الحياة ما شاء الله أن يقطعه من العمر ،

زاعماً أنه عاش طوال هذه السنين حقاً ، وينسى أنه في وقت
تفاقه حين يظهر النفس على غير حقيقتها وسجيتها يحكم على نفسه
بالاعدام ، وذلك لأن شخصه الصحيح المطبوع قد يتوارى عن
الوجود أثناء مظهر شخصه المعتل المصنوع ، الذي يبكي بينما يريد
الشخص الحقيقي أن يضحك ، ويمدح بينما يريد الشخص الأصل
أن يقدح ، ويضمر بينما يريد الشخص المطبوع أن يذيع ويظهر .

*
* *

يحسب المسكين أن نواحي الحياة الاجتماعية لا يلتئم وإياها
إلا بعض المواقف التي يظهر فيها المرء على غير فطرته ، وينسى
أنه ومن على شاكلته هم الذين يهيئون في الحياة الاجتماعية تلك
النواحي التي قد يفوز فيها المنافق ، ويدحر فيها الصادق .

وقد يقول لك أحياناً على نحو ما يقول بعض علماء النفس
والاجتماع : أن حياة الجماعة قد تقتضي في كثير من شئونها
بالضرورة أن ينزل الانسان عن بعض شخصيته ويرأى ويداجى
لكن يفوته أنه ينبغي للانسان ألا يقنع بكل ما في الحياة
الاجتماعية على ما هو عليه ، ولكن يجب على الانسان الرفيع أن
ينظر إلى الحياة على ما ينبغي أن تكون عليه .

قد يكون من أخلاق البهائم أن تسير على السبيل المطروق وتنحى نحو المهيأ ، لكن من خلق الإنسان الممتاز أن يستكشف في حياته سبلاً غير التي تألفها الجماعات والاحشاد المنحطة ، وأنه يرى في أفق هذا السبيل كوكب الكمال متلألئاً لامعاً .

حياة الإنسان هي شخصيته ، وشخصية الإنسان هي مجموعة ما انطوت عليه نفسه من آراء ، ومشاعر ، ودرجات من النشاط ، وحياة الإنسان هي غاية لنفسها وليست وسيلة لشيء ، يجمع على حقيقته في هذه الحياة .

فلماذا إذن يغير الإنسان ما في نفسه من أفكار لأفكار أخرى ؟ ولماذا يستبدل بعواطفه التي تشبعت بها سجيته عواطف أخرى ، ولماذا يزيغ إرادته التي تلتئم وطبيعته وعواطفه ويتخذ إرادة مغايرة لها ؟ ؟

أيها المنافقون — اعملوا على أن تظهروا على حقيقتكم ، وكونوا كما أنتم ، وعيشوا بوجدانكم ، فذلك أحرى بأن يجعل لكم من الحياة حياة ، والا فالنفاق يجعل بعض العمر نوعاً من الموت هو أخطر أنواع الموت لو كنتم تعقلون .

القاهرة في ٥ من ديسمبر سنة ١٩٢٥

صورة من صور القلب

« مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء »

زيد من الناس قد يكون ربعة القوام ، يضرب لونه
إلى الطين الطفلى ، وقد يكون طويلاً أو قصيراً ، قاتم اللون أو
أقرب الى الدكنة ، وقد يكون أبيض ، وقد يكون على كل لون
شئت ، أو من أى مقياس ، لأن نوع المتقلبين عديد الأشخاص
كثير الوجوه .

لكن زيدا نبیه يفهم ما يلقى اليه سريعاً ، ظريف لأنه متناسب
الخلقة والوضع ، وكلما تغادر شفتيه الابتسامة الوديعه الهادئة .
ليس بالمشغوف بالأدب ، وهو على ذلك يحرص على حفظ
آيات من الشعر وبعض أمثال ، وكلها لا يعدو المعنى الذى
تستطيع أن تخرجه من ذلك الشطر : « ودر مع الدهر كيف دارا »
فكان الأصل فى فلسفة زيد هذا وثقافته أن يعلم المرء كيف
يتقلب ويدور .



كان من الذين متوا الى الحزب الوطنى بسبب يوم كان لرجال

ذلك الحزب الصولة والدولة . وكان مع الوفديين في وقت ما ، وقد أكل خبزاً وملحاً مع الديموقراطيين ، وتعاقد مع الدستوريين والتحم بالاتحاديين . لم يتصل بحزب من هذه الأحزاب إلا ساعة ظن أن لهذا الحزب شأنًا ونفوذًا ، وقد يكون لرجاله كلمة ومقام ! ما أكثر أنداد زيد في الدنيا من الذين يسيرون وراء مصلحتهم أو من الذين يستخفون بالسلوك المستقيم وسننه ، أو من الاخساء الذين يتعلقون بمن يقوى ويفرون ممن ضعف .

على أن الذى يسلىنى من أمور زيد هو أسلوبه في محاوراته ، وبعض أحاديثه ومداوراته ، في وقت يحسب فيه أن دولة حزب من الأحزاب كادت تدول ، وأن حزباً آخر كاد حاله الى المجد يحول ، أو أن عزيز قوم قد آن له أن يضمحل ، وأن ينال مكانه رجل كان من الذين محيت اسمائهم من الكتاب وأن لاسمه أن فيه ويصير من الناهين .

في ذلك الوقت يقلل زيد اختلاطه بمن كان يلبسهم كثيراً من هؤلاء الذين آن للمجد أن ينصرف عنهم ، وإذا جلس بالمجالس سمعته يقول هذا بلد لا خير فيه وليس فيه الخير ، وليس الخير فيه ، والخير لا يكون فيه ، وما الى ذلك من عبارات مكررة

ومعان واحدة تكاد تبغضك الى كل بلد وتكاد تكرهك في كل
جماعة وفئة .

وفي ذلك الوقت يشرع في أن يشد الحبل بينه وبين هؤلاء
الذين كان قد ارتخى الحبل عندهم من زمن مضى ، ويشرع في
أحاديثه بذكر بعض حسناتهم التي كانت في رحمة الله منطوية
ويتنزه فرصة سانحة ليرافق صديقاً لزيارة هؤلاء الذين سيصبحون
عما قريب أولياءه ويصبح وليهم . وإنك لتعجب من جرأته عند
ما يسوق لمن يحسبهم أولياء المستقبل القريب مظاهر الود وآيات
التبسط ، ومن تحدته معهم في شئونهم الحزبية كأنه واحد منهم
ولا تدهش إذا سمعته يقول أمامهم ينبغي أن تكون خطتنا إزاء
خصومنا هي كذا وكذا وأن تكون أعمالنا لاصلاح شئوننا هي
كذا وكذا بصوت تملؤه الحماسة .

لا تدهش من أمثال هذا يوم تراه أوتوقراطياً ، ويوم تراه
ديموقراطياً ، ويوم تراه انكليزياً ، ويوم تراه وطنياً . ويوم تراه
ولياً . ويوم تراه عصياً .

هو كل شيء ؛ لأن حكمته البالغة « ودرمع الدهر كيف دارا »
ولأنه يجد من الفطنة والذكاء أن يتخذ المرء لكل حالة لبوسها



إن المتقلب لا يقدر قيمة الحياة إلا بمقدار ما يكسبه الإنسان فيها من وجاهة المظهر، وزيادة الثروة، والتكسب عن العقبات، ولا أنكر عليه أن الوجاهة والرزق والراحة من الخيرات التي لا تهون؛ لكنى أنكر عليه الجهل بأن في الوجود خيراً آخر اسمه الخير الخلقى يتلخص فى حسن تقدير الناس للناس، وفى راحة الضمير وأن لذة هذا الخير قد تربى على لذة ما يطلبه من مال ووجاهة وراحة .



أنكر على المتقلب ما أنكر وأعجب لأصحاب المبادئ كيف يلقى المتقلبون فى رحابهم سهلاً ، وكيف يجدون فى الحياة الاجتماعية أهلاً .

أستغفر الله قد تساورنى الوسوس فأقول الناس عندنا أما غافل يستخدمه المتقلبون ، وأما متقلبون بالقوة والاستعداد فهم يأنسون بالمتقلبين بالفعل والحركة .

سعادة الباشا أو

صورة من صور التصنع

من الناس من يهوى له القضاء أسباباً ليتصف بصفات النبالة
والشرف فما يبطنه مما تخفى النفوس نبيل ، وما يظهره مما تبديه
الجوارح لطيف ظريف ، وهؤلاء هم الأشراف حقاً ولو لم يكونوا
من طبقة الأشراف عرفاً واصطلاحاً .

ومن الناس من ينشأ فظاً فيما يعلن ، مردولاً فيما يسر ،
فتعاف مظهره وخبره معاً ، فهو حقاً من الطعام رغم وفرة نعمه ،
وكثرة خدمه ، وحسن ثيابه . ويختلف ألقابه .

وذلك لأن النبالة الحققة صفة من صفات النفس ، وإن
مظاهرها من الحركات الخارجية لا تؤثر أثرها الصالح في الناس ،
ولا تقع وقعها الحسن إلا إذا كانت ترجمة مطابقة لما في النفس
الشريفة من معاني الشرف وبواعثه .

*
* *

واليك وصف نبيل من نبلاء العرف لم يجعله الله ليكون نبيلاً ،
ولكن الزمان الأعمى حشره في زمرة ذوى الألقاب من أهل الشرف !

عرفت ذلك الباشا منذ كان طفلاً فكان يأكل كما تأكل
الأطفال من أبناء طبقته، ويفرح كما يفرحون، ويحزن كما
يحزنون، فيه وداعة البساطة، فإذا حزن ظهر عليه حزنه، وإذا
غضب بدا عليه غضبه.

ذهب الى المدرسة وجد واجتهد، وجاز عليه كل ما يجوز
على التلاميذ من حيل، وفوز، وآمال، ومثوبة، وعقوبة. وبعد
أن جاز دور التلمذة ارتقى سريعاً الى درجات أرباب المناصب
المميزين، ثم حبي الرتب، ثم منح الألقاب، وخلاصة القول
أن صديقنا الطفل الوديع المتواضع حسباً وحالاً أصبح شخصاً
آخر. أصبح مولاي الباشا...

ومولاي الباشا تعلم من غير حذق كيف يهتز في مشيته
معجباً، وكيف يحيي أقرانه القدماء من أصحاب « الحضرة »
بنوع من البسمات الحائرة التي توهمك أنها تهبط عليهم من
الأفق الأعلى، وكيف أصبح يحيي زملاءه أصحاب « السعادة »
بنوع من الابتسامات المترققة المتظرفة التي لا تطابق في صناعتها
صناعة الله لوجهه القاتم وشفتيه الغليظتين!

أصبح لمولاي الباشا بطن ولقد كان رفيق الطفل لا بطن له ،
وأصبح صوت سعادته يتشعب عند خروجه فبعضه يخرج من
الأنف الشامخ ، وبعضه يخرج من حلق مقبوض العضلات ،
وقد تسمع من صوته المتوزع بين نبرات الغرور ، والادعاء ،
والتعاطف ، رنات تشبه نعمة التؤدة والرزانة والوقار ، كان مولاي
يوهمك في تباطؤ أن كلماته ذهبية تتناقل في تتابعها لما فيها من
النفاسة والحكم ...

أين ذلك الصوت الماضى الذى لم يكن فيه تكلف ولا صناعة
وكان يخرج كأنه حديث القلب السليم ؟ وأين تلك المشية الخفيفة
التي حلت مكانها المشية المتثاقلة ؟ وأين ذلك الاطمئنان والسكون
الذى كان لعضلات رقبته ووجهه ، فحل محله التقلص والتصغير ؟
وأين ذلك الهندام البسيط وقد حل محله نوع من الاناقة والتجمل
لا يتناسبان وسحته البغيضة .



أشفق على مولاي الباشا أن تعتاد حنجرتة وأرجله وعضلاته
ونظراته ما لا يلائمها من الطبع ، ويصبح مثله مثل الذى يدع
صنعه الذى يليق به ويشا كله ويطلب غيره فلا يدركه ، ولذلك

الأخيد عليه ما قرأه وقرأناه في كتاب « كلية ودمنة » في باب
« الناسك والضيف »

« زعموا أن غراباً رأى حجلة تدرج وتمشى فأعجبته مشيتها،
وطمع أن يتعلمها، فراض على ذلك نفسه، فلم يقدر على إحكامها
وأيس منها وأراد أن يعود الى مشيته التي كان عليها، فإذا هو قد
اختلط وتخلع في مشيته وصار أقبح الطيور مشياً . . . »



مولاي : خفف عن نفسك غلواء شخصيتك الموهومة ،
وكن كما أراد الله أن تكون عليه مما يلتئم مع شكلك ومما يتفق
مع ما راضك عليه آباؤك وأجدادك ، واعلم أن من لبس ثوباً
صافياً فقد يتعثر، ومن لا يحذر مخاطر التعالي فقد يتدهور .

السبت في ١٩ من ديسمبر سنة ١٩٢٥

لعام ١٩٢٦

إيه يا عام أقبل على الوجود كما أقبل عليه غيرك . فانك قد تلقى
 فى سماوات الصباح شمساً نيرة ، وفى سماوات الليل نجوماً متلألئة .
 وقد تجدد كما وجد غيرك زهرة تتفتح عن أريج تنشره عطراً فى
 الصباح إذا تنفس . وقد تجدد كما وجد غيرك طائراً أنيقاً يستقبل
 فجره بالتغريد . وقد تجدد عبداً من عباد الله ناسكاً يحبك
 بدعوات وصلوات . وقد تجدد نواة فى جوف الأرض تتمخض
 عن حياة . وقد تجدد حياة فى داخل الأرحام تتحضر للوجود . وقد
 تجدد فكراً فى داخل النفوس يتوئب للظهور ، وعواطف فى حنايا
 القلوب تفيض حباً وحنيناً .

*
* *

ولكن . . . ولكن قد تجدد أيها العام مع مظاهر السعادة ،
 والنور ، والحياة ، خليطاً من مظاهر الشقوة ، والظلمة ، والعدم .
 إن رأيت على الأرض زهوراً ، فقد ترى على الأرض قبوراً .
 وإن رأيت شفتين انفرجتا عن الابتسام ، فقد ترى شقين شدا
 من سقام وآلام . وإن تسمعت من بعض الأفئدة حنيناً ، فقد
 تسمع من أفئدة أخرى أنيناً . وإن وجدت فى ناحية من نواحي

الأرض عدلاً ورحمة ، فقد تجددت في بعض نواحي الأرض ظلماً
وتقمة . وإن وجدت بطوناً تدفع ، فقد تجددت أرضاً تبلع . وإن
وجدت في ناحية من الربوات عيون الترجس يبلها الندى ، فكم
تجد من عيون سليمة تبلها الدموع .



. ولم أشأ يا عام أن ألقاك كما يلقاك الشباب في المراقص
والأفراح ، بين قبلات طاهرة أو قبلات فاجرة ، ولم أشأ أن ألقاك
يا عام في مجلس الصهباء بين قرع القواوير أو رنين الطاس والكاس .
ولم أشأ أن ألقاك يا عام حيث يفرع العبد لمولاه ، وحيث يستغفره
ويتراضاه . وآثرت أن ألقاك في الأمس الأول في غرفتي ، وحدي ،
وبين حيطان أربع ، لأتحدث إليك في انفراد ، وأحاسبك في
نفسى عن غير غل أو عناد .

شعرات ييضاء أخذت تنبت في الرأس وبعضها يتجه نحو
الأرض ، وبعضها يتوجه للسماء ، رمزاً إلى أنك أيتها الأيام تدين
الخلائق إلى أصولها في الأرض وفي السماء !! وأعصاب تراخت !
وعضل قد تصلب ! وعظام ييست ! وفي سبيل الخير ضعف
العصب والعسل والعظام .

لكنك أيتها الأيام وإن استطعت النيل من جسامنا فقد
صان لنا الله من عبثك العرض والكرامة فارحلي عنا بما ترحلين ،
واقدمي علينا بما به تقدمين ، فلا حقد عليك لما تسلين ، ولا
خوف ولا رجاء مما وفيما تحملين .

إيه يا عام لقد تولد في مجراك نفوس بريئة غافلة عما تحفيه لها
لياليك ، جاهلة بما تحفظه لها أيامك ، وإذا بك وأنت تعمل
خلف بسماتك الماكرة لتخفي لتلك النفوس البريئة في مكامن
السبل طوابع النحس أو طوابع السعود .

فكم من الناس زهت لهم الأمانى ، وتلاأت لهم الآمال ،
نغدتهم عن تلك الأمانى ، واطفأت أمام أعينهم نور الآمال !!
وكم من الناس حولت لهم العيش المنكود نعيماً وأحلت لهم
النار برداً وسلاماً .

فيا أيها العام إن غرك سلطانك ، وإن كبر لديك في نفسك
شأنك . فاذا ذكر حكمة سليمان « باطلة الأباطيل وكل شيء غير
الله باطل » .

عند اطلال طيبة

(١)

انتقلت مع فريق من طلاب مدرسة المعلمين من مدينة
الاقصر إلى الشاطيء الغربى للنهر المبارك لأرى ما أبقى الدهر
من معابد ومقابر، ولأطوف طوفة حول ما أبقى الأوائل للأواخر،
فقطعنا طريقاً ممدودة بين حقول من العدس والحنطة ومما ينبت
النيل العزيز.



كان يحد النظر جبل «القرنة» وهو جبل جبرى غير مرتفع
توالت عليه مؤثرات الاكوان والأزمان فاعبر لونه، ويكاد الناظر
يراه أفقياً . وكنا كلما دنونا منه بدا للطرف تمثالا « أمينوفيس »
كالأشباح الهائلة يشقان من الفضاء الى السماء شقاً منجانياً
يتقيد عنده البصر، ولقد خيل الى أن التمثالين العظيمين انما نصبوا
للإشراف على هذا الفضاء الواسع، وليلآه رهبة وعزة، ويستوقفا
كل من يمر بهما ليحييهما قائلاً :

سلام عليكما أيها الشاهدان على عز غابر، وبأس حاصر، لقد
تعاقبت عليكما الليالى والأيام، وتحلفت عند قدميكما الخقب

- ١٥٨ -

والأعوام ، وانصبت فوق رأسيكما أضواء الشمس الضحوك
وعتمة الظلام . سلام عليكما لقد هبت في وجهيكما لوافح الرياح
وتبللت عيونكما بطل الصباح ، وابتسم الدهر تارة حولكما في
هذه الديار فعمتها العظمة ، وقطب حاجبيه لها تارة أخرى
فتوالى عليها المحن والنقمة . كل ذلك وأتما صامتان لا تتحركان
تشرعان بمظمة كانت ثم مضت ، وعزة تولت وانقضت . وماض
جد عظيم ، وتاريخ ثم مقيم .
سلام عليكما من كل عابر ، ومن كل ذاكر .

ثم تذكرت في سبيلي الى زيارة الآثار اننى منذ بضع سنين ،
قد قطعت طريقاً في بلاد اليونان لمعابد « دلفوس » يقرب شهباً
من الطريق الذى قطعته في الأسبوع الماضى وينتهى ذلك
الطريق الذى يتلوى ويهبط ويصعد بين مزارع الأعناب والزيتون
الى واد سحيق ، وجبل صخري منعزل ، كانت شيدت عنده
بيوت آلهتهم ومنازل السحرة والناسكين فيما سلف .
ثم تذكرت والذكرى تبعث الذكرى أديرة الرهبان النائية ،
وصوامع المنقطعين للعبادة النازحين فر بنحاطرى عندئذ أنظر
بين عهدين من عهود التاريخ . وحالتين من أحوال النفس البشرية

مر بخاطري أن أنظر بين العهد الغابر ، والعهد الحاضر . وبين النفس المتصلة بالملأ الأعلى والنفس المتصلة بشؤون الدنيا .

لقد كان العهد القديم يعنى بالمعابد والقبور لأنه كان عهد الله وعهد الأديان ، فتخير لآثاره ومشيداته كل مكان تكتنفه الرهبة ، وقصد الى كل ناحية تشملها السكينة والقرار والهيبة . وحيث وجد المكان منسجماً مع نزعة الريانية شاد لدينه وآخرته وأعرض عن دنياه . أما العهد الحديث فهو عهد دنيوى فقد جعل آثاره فى المصانع والمتاجر وشادها حيث تسهل المواصلات ، وتقضى الحاجات وتدر الأموال ، وتكثر الأعمال ، فحيث وجد المكان والزمان ملائماً لابرار نزعة المادية من مصالح الحياة شاد للأرض وعمر ، ونسى ربه فى السماء وتكبر .

ولو جاز لنا أن نتنبأ بأمر المستقبل لقلنا ستكون آيته المصنع والمتجر ، وأما الماضى فأيته المعبد والمقبر .

أن نفس الإنسان الذى مضى كانت تهيم بعالم البقاء ، وتعاف الفناء ، وأما نفس الانسان الحاضر فانها أعلق بعالم الشهادة وأدرى بالمنافع ، وألصق بالواقع .

إنسان الماضى سماوى ، وإنسان الحاضر أرضى ، فهل حقاً هبط آدم وأبناؤه إلى الأرض من السماء !!!

(٢)

الكرنك

... وذهبت في ليلة مقمرة الى معبد الكرناك . وفي الليل
تطيب التأملات ، وفي ضوء البدر المنتشر في السموات والأرض
ما قد يأخذ بالنفس العانية الى نوع من الارتياح والانشرح ،
وبين الأطلال البالية حيث تصيح البوم صيحاتها ، وتن أناتها ،
ما قد يوحى الى النفس خشية الوحشة ، ورهبة العدم ، وبين
الأروقة الواسعة ، والعمد الضخمة المرفوعة ، والتماثيل الموضوعة
والأفنية المنبسطة التي تسمع من خلالها ديب هوام الأرض
وخشاشها ما قد يدعو الى سكينة في النفس واحترام يخامر
الإعجاب والدهش .

*
* *

هناك في تلك الليلة البيضاء بين تلك الأروقة ، وعند تلك
الأعمدة ، وفي هاتيك الأفنية ، شعرت نفسي بحاجة إلى التأمل
وحالة من الارتياح ، والهيبة وتقدير العظمة . وقد يفعل هذا
المنزج من الانفعالات فعل السحر أحياناً . وما السحر إلا ذهول
المرء عن الحقائق فتؤخذ نفسه بغير الواقع ، وتتصل بضروب

الخيال ، وتلابس الظنون والأوهام ، فيرى ما لا ترى العيون ،
ويسمع ما لا تسمع الآذان ، ويحس ما لا تحسه المشاعر .

✱

✱ ✱

كثيراً ما يشعر المرء بأثر السحر عند منظر جميل أخاذ ، أو
عند نغم مستطاب شجي ، أو عند رؤية ما يروق من مظاهر
الكون أو آيات الفن : لكن أثر السحر يختلف باختلاف علله
وتباين أسبابه . فتأثير الهياكل والآثار في النفس لون من السحر
يغايّر في نوعه تأثير الأغاني والألحان ، وذلك لأنه يرد النفس إلى
الماضي البعيد فترى العين بعين الغابرين ، ويستحيل الذوق إلى
ذوق البائدين ، وذلك لأن كل أثر من آثار التاريخ قد يستبق
فيما أبقاه عبقرية من شادوه ، وذكرى من أقاموه ، وحس من
هياؤه ، وإن شئت فقل خلاصة تاريخهم الناطق ، وإن شئت
فقل أرواحهم الحائمة . وقد تجتاز هذه المعاني جميعاً نفوس الزائرين
فتأثر بها فتصيرها لحظة من جوهر غير جوهر الحاضر ، وتحرف
بها عن تقدير الحال فتنساه ، ولذلك قد يرى الإنسان عصرًا غير
عصره ، وينظر بنظر غير نظره ، ولعل السر كل السر في زيارة
الآثار أن يتعلم الزائر كيف يستغرق بشعوره في شعور الماضين ،
وتمثلهم زماناً ومكاناً .

ولقد اختبرت في نفسى فيما مضى أثر الفن اليونانى القديم
 فى وقفة وقفها با « الاكروبول » فى ليلة قراء فكنت أحسب
 أن الأعمدة المنحوتة من المرمر المسنون ، وبقايا التماثيل والأحجار
 التى ينساح عليها الضوء الفضى الخالص ، كلها تبسم ، وكأنى
 كنت أرى أشباحاً من البشر الضحوك تصب الخمر ، وترسل
 الأنغام ، وتدير المراقص ، وتنشد أناشيد الجمال .

ومن نحو أسبوعين قد اختبرت فى نفسى أثر الفن المصرى
 فى « الكرنك » فشعرت بالسحر فى ساحاتك يا آمون ، نخلت
 أن الكهنة بمسوحهم يحملون السفن المقدسة ويطوفون
 ويرتلون ويتمنون . وخلت أن عظيمًا من « الرمامسة » تنزل
 الأرض لجبروته وتتلأأ السماء فوق عرشه ، ويصيح بالناس وهم
 سجد خشوع ، أنا ربكم ، ولى أرض مصر ، ولى فيها الحصون
 والخلود .

*
* *

ايه يا مبيد السالفين ، يارب العالمين . ايه يا حقيقة فوق
 الحقائق ، ويا ملء الآفاق ومبدع الخلائق . إن يكن الإنسان
 وهو ذلك المخلوق الضعيف الذى توزن كلماته ، ويحد زمانه ،

ويُقاس مكانه . ليس في مقدوره إلا أن يلهج بعظمتك حقاً
 في معبار حروفه ، وقدر زمانه ، ومحدود مكانه ، فصورك أحياناً
 من منحوت المحاجر ، وشاد لمجدك العماثر ، وصاغك من صلب
 المعادن ، وشكك من باسق الأشجار ، وتطلع إلى وجهك في
 اشراق الشموس والأقمار ، ودعاك بأسماء مها اختلفت مقاطيعها
 وعباراتها فما هي الا موجات من موجات الاهتزاز ، فأنت أنت
 وإن تباينوا في تعيين صفاتك وأسمائك أنت أنت رب الأرباب
 الذي تشعر النفس ساعة صعودها وصفوها بعظمته وربوبيته ،
 وأبديته وسرمديته .

*
* *

وكان ضوء القمر الفضى مموهاً بشيء من زرقة «الجرانيت»
 وكنت أكاد في ذهولي لا أشعر إلا بمعاني العظمة والجلال .
 ولكنها التفاتة بدت مني الى السماء الواسعة اذ كانت الشعرى
 تتلأأ في كبدها ، وتوهج ، فكانت كأنها كلمة الله الأعلى تقول
 لمن سحرته عظمة فرعون وفتنه فنه : إن عظمة الله في السماء
 فوق كل عظمة وفنه فوق كل فن .

أيام العيد الفائتة

هى أيام كنتك التى تأتى بها دورة الفلك ، فطلع فيها الشمس
فى متنفس الصباح ، وتغرب فيها كذلك عند مقدم الليل
وحلول الدجى .

وهى أيام لا يصيب فيها الأرض إلا ما أصابها من الخضوع
لسنن الوجود .

وهى أيام لا تتخلف فيها تلك القوة العظيمة التى تشد الأرض
فى مدارها حول الشمس ، وتدفع حول الأرض تابعها القمر .

وهى أيام لا يفتأ فيها الندى يتساقط على كؤوس الزهر ،
وتجرى فيها الجداول بين الحقول النضرة ، وتغرد فيها الطيور
على أفنان الشجر .

وهى أيام قد تتحرك فيها الأصدا ف وما فيها من لؤلؤ دفين
بين طبقات اللبج ، وقد تتحرك فيها الدموع على عزيز طوته
الغباء فى أحشائها .

فهى أيام شأنها إذن فى عالم المحسوس كشأن غيرها من الأيام .

*
* *

لكن فى نظام الكون عالمًا معنويًا يرى بعين غير التى ينظر

بها الى ذلك الوجود المحسوس، عالمًا لا يخضع لقوانين الأفلاك إذا
هي تدور أو إذا هي تمور، ولا لقوانين الحياة والأحياء إذا هي تنمو
أو تحور، عالمًا لا يخضع إلا لقوانين القلوب إذ تذكر وتشعر،
أو تظهر وتضمّر. ولقوانين النفوس إذ تميل وتنفر، وتتمنى وتقدر.

*
* *

وفي تلك الأيام التي يصطليح الناس على تسميتها أيام العيد،
يتجلى منظر واضح من مظاهر تلك القوانين النفسية قد ينتهي
عند تحليل ما يتصل به من طقوس، ورموز، وأدعية، وصلوات،
الى صنوف من الذكريات، وألوان من الأمال، وضروب من
الانفعالات، تلفح ريحها الأفراد والأثم وقد تفعل فيهم فعل
السحر فتخرجهم عن طورهم المألوف فتصبح أيام العيد كأنها غير
سواها من الأيام وكأن شمسها غير الشمس ونسيمها غير النسيم.

*

ولقد مرت علينا سنون طيب الله ذكرها من سنين كان فيها
القلب باسمًا، والبال ناعمًا، فكنا نشعر بقانون العيد كما يشعرون
ونلبس له الجديد كما يلبسون... ولكن... ولكن الفلك
سيار، والزمن جبار، فلا هو يبقى الغصن لينًا رطبيًا، ولا هو
يبقى القلب للسرور خصيبًا.

فأين أنت يا أيام النفوس الفتية ، ويا ليالى الصبا الهنية ، أين ؟
 أين أنت وقد كنت تجودين على القلب بخصائصك من بحبوبة
 السرور ، وعلى الذهن بسعة الخيال ، ولذائد الأحلام والآمال .
 وكنت تجودين بحملى الذكريات . وكنت تجودين بملء
 الضحكات ، وكثرة البسمات . وكنت تجودين بأحاديث
 الأنس والجمال .

أين أنت يا تلك الأيام ، أيام العيد ، التى كانت تشرق شمسك
 دون أن تمر أضواؤها بسحب متلبدة ، وغيوم متعددة ! .
 وأين أنت أيها البصيص من النور الوهاج والأمل ، الذى
 كان يحفز الهمم القوية للنشاط والعمل . أين ! .

سلام على ما مضى وفات ، ونظرة رجاء لما هو آت . وليبارك
 الله للزهرة المتفتحة فى أيامها وأعوامها ، وللصغير الناشئ فى جديد
 ثيابه ، وفى عطف أحبابه ، ولينعم بفضلها محيا الناس بالسرور ،
 وقلوبهم بالنور . وليسبغ على نفوسهم أسباب الوثام ، وليهيء
 للأمة فى سبيلها الرشاد والسلام .

التسامح

في هذا الوقت الذي يحل فيه كدح العام وكده على الجسوم ،
وتقع فيه ضروب من الأوصاب على العضل والأعصاب ، بل
في هذا الوقت الذي قد يشتد فيه القيظ أحياناً ، فتذبل الزهور
على العيدان ، ويشرد فيه الكرى عن الأجفان ، بل في هذا الوقت
الذي قد تعرض فيه لنوابنا الكرام ألوان الآراء ويطلب اليهم
أنواع الافتاء . بل في هذا الوقت الذي يذهب فيه الفحول من
شيوخنا مذاهب الجدال ، وتظهر في مجالسهم مظاهر النضال ،
بل في هذا الوقت الذي تضجر منه النفوس وتسام قهيج من
الجليل ، وتهيج من القليل ، أقول في هذا الوقت يطلب الى عزيز
على أن أتحدث الى القراء في معنى التسامح — وآه لولا التسامح
وبلسمه الشافي لالتهبت النفوس من كل مجادلة ، أو من كل
مبادلة ، ولولاه لولاه لجرحت نفوس الناس من التشاد ، وتورمت
أفئدتهم من الأحقاد ، ولولاه لتقطعت أوصال المحبين ، وتفرقت
جموع المتواصلين ، فهو نعمة لولاه لما ظل الخير بين الناس .

ولقد يكون للتسامح غدة روحية جعلها الله في القلوب لتفرز
فيها عصيراً طاهراً يرهما كلما قرحت من أمور الحياة الاجتماعية

وشتونها القاسية ، ولقد يكون التسامح أدنى خلال بجدارة
ابن آدم الذي سواه ربه وسوى معه ضعفه ونقصه .

يقول أهل الأخلاق إذا كان من حق الإنسان أن يقيّد نفسه
ويربط عقيدته بما يبدو له حقاً ، وأن يميل عما يظهر له باطلاً ،
فمن واجبه كذلك حيال غيره أن يحترم آراء هذا الغير فيما يبدو له
حقاً أو باطلاً دون أن يلزم بالاعتناع بحقه أو بمطاوعته في باطله .
ولا يقصر الأمر في احترام رأى الغير على الرأى المستكن في النفس ،
أو الملابس اللينة وما تخفى الصدور ، لكنه يتناول مظاهر هذا
الرأى من قول ينطلق من النفس انطلاقاً الى الحياة الظاهرة ،
أو من عمل يتحقق به أمر من أمور هذا الوجود على أن يكون
هذا القول أو هذا العمل غير متعارض وحق الغير أو معطل لمساها .

ويقول أهل الأخلاق أيضاً : ينبغى ألا يتخذ الإنسان وسائل
العنف ، ولا يستخدم ضروب التأثير القاهر ليحول شخصاً عن
آرائه وعقائده لعقيدة أخرى ، ولو كانت تلك العقيدة صحيحة
سليمة ، وما كان عليها ذلك الشخص معتلة سقيمة ، لكن لكي
يأخذ أحداً غيره الى رأيه ينبغى أن يسلط عليه الحجة برفق ،
ويرسل اليه البرهان متيناً ليناً ، ذلك لأن الأدلة والحجج تعمل

في النفوس عملها ولو كانت مصفحة بالمكابرة لأن الحق ضياء والضوء جذاب بطبعه ، والباطل ظلام ، والظلام بطبعه منفرممقوت مهما دفعت اليه الأهواء التي تطمس على البصائر وتعمى الأبصار .

قد يخيل للمرء أحياناً أن الاقتناع برأى من الآراء يحمل المقتنع به على الدعاية له بنوع من المغالاة يمت الى عدم التسامح ، وقد يخيل للمرء أحياناً أن الذي يقتنع برأى ولا يشر به بشدة هو مفرط في حق عقيدته وإيمانه ، مستخف بمبدأه ورأيه ، لكن لو تأمل الإنسان قليلاً لوجد أن الحرص على تأييد رأى صحيح لا يقتضى الشدة في وسائل ذلك التأييد ، لأن خير موازر للحقيقة نورها الساطع ، وإن الحق لشديد بنفسه قوى بأثره وتأثيره .

ولطالما أدى التعصب لرأى من الآراء وعدم التسامح فيما عداه الى القطيعة بين الخللان ؛ وحسب الإنسان ، لكي يتسامح ، أن يذكر أنه مهما بلغ من الوصول الى الحقائق فإن جوهرها المطلق ليس في حيازته وإنما هو في حيازة الله ، وحسبه أن يتذكر كذلك أن بعض الحقائق التي تحكمنا يبراهينها وتبهرنا بضيائها قد يسطع من خلفها نور يتضاءل عنده كل ما نرى من ضياء .

ولطالما أدى كذلك تمسك أهل النفوذ والسلطان والحكومات
برأى من الآراء مع عدم مراعاة التسامح فيما يخالف هذا الرأى
الى تقسيم الأم شيعاً، وتمزيقها ألفافاً، ورياضة بعض على الخنوع
والذلة، وبعض على النفاق، وبعض آخر على الجمود. وسر عظمة
الأم في الإباء بيت في أفرادها، والصراحة تفيض بين يثائها،
والتفكير الحر يعم رؤوس مفكرها .



والتسامح في درجة من درجاته قد يتشكل بصورة العفو
عن بعض الزلات والذنوب، وصفة التسامح من الصفات التي
ينسبها السادة أهل الدين والتقوى الى الله واسع الرحمة الغفور .
وقد اتخذ الأنبياء والصالحون من التسامح والعفو ما جعلوا به
شمائلهم فأنصف بالتسامح موسى وقدم التسامح عيسى وعمل
بالتسامح محمد حتى لقد ورد فيما يروى من الآثار الإسلامية أن
رسول الله العربي لما قدم مكة وضع يديه على باب الكعبة والناس
حوله وقال :

لا إله إلا الله وحده، لا شريك له ، صدق وعده، ونصر
عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، ثم قال :

يا معشر قرش !؟ ما تقولون ، وما تظنون . فقال قائمهم
تقول خيراً ، ونظن خيراً . أخ كريم وابن عم رحيم وقد قدرت .
فقال الرسول أقول كما قال أخى يوسف : لا تريب عليكم اليوم
يغفر الله لكم .

وجدير بالمرء أن يذكر قول من قال :

وخذ من الناس ما تيسر ودع من الناس ما تعسر
فإنما الناس من زجاج ان لم ترفق به تكسر
فتساحوا وتصافوا ان الله يحب المتصافين المتسامحين .

القاهرة في ١٩ من يونيه سنة ١٩٢٦

للعام الهجرى الجديد

في ليلى هذا الأسبوع الأول من شهر المحرم رسمت على صفحة السماء أهلة كأنها شقق اللجين تزايد ثم تزايد حتى تصبح بدوراً كلما تقدمت ليلى الشهر الى منتصفه ، ثم تتناقص هذه البدور حتى تغيب ، وهكذا تنشأ الأهلة وتنمو فى كل شهر عربى ، وهكذا تتضاءل البدور وتضمحل وتغيب .

ولقد اعتاد الناس أن يستبشروا بيزوغ الهلال ، أول كل شهر عربى ، ويدعوا رباً طالما تقبل دعاء المستبشرين أن يهله بالامن والايمان والبر والسلامة ، وأن يجعل الشهر مباركاً عليهم وعلى آلهم وعشرائهم ومن يحبون .

*
* *

وفى هذا الأسبوع من هذا الشهر كم من دعوة عرجت الى السماء من قلب يملؤه الرجاء ، وكم من قبلة ساذجة طاهرة ألقتها أم رعوم على جبين ولدها وهى تنظر الى الهلال باسمه مستبشرة ، وكم من صديق نظر الى وجه صديقه وفاض من عيونهما البشر بعد أن لحا القمر الناشئ فى الأفق ، وإن وراء هذه الدعوات

وان حول هذه القبلات ، وان خلال هذه البسمات قد يتجلى عطف الله على الناس ورحمته السابغة عليهم ، والله يحب الآملين ويرأف بمن يحسن به الظن من عباده ولا يرضى عن القانطين منهم الذين لا يرجون ولا يتشوقون .

في الأخبار أن الله أوحى الى داود عليه السلام أن أحبنى ، وأحب من يحبني ، وحبيبي الى خلقي ، فقال داود يارب كيف أحبيك الى خلقك ؟ قال اذكرني بالحسن الجميل ، واذكر آلائي وإحساني وذكركم ذلك فانهم لا يعرفون مني إلا الجميل .
وقيل ليغفرن الله يوم القيامة مغفرة ما خطرت على قلب أحد حتى أن ابليس ليتناول لها رجاء أن تصيبه .

وعلى ذلك نستقبل العام الهجري ونحن نذكر الله ذا الآلاء والرحمة والاحسان . نذكره راجين الخير متفائلين طامعين في إحسانه وغفرانه ، وما الحياة القيمة إلا بشرورجاء ، وطموح للخير والعلاء . فأقبل أيها العام الهجري إذن على بركة الله ورحمته وحنانه فالرحمة يارب هي أحب صفاتك اليك ، وحسن الظن بك أحب ما تطلبه الى عبادك ، وأنا لنرجو رحمتك ونحسن الظن برحمتك ورأفتك ونرجو عفوك عما سلف .

✱
✱ ✱

اعتاد الناس أن يهنيء بعضهم بعضاً عند دخول السنة الجديدة
وليت شعري علام يتبادل الناس تلك التهانيء ؟ الآن عاماً
أضيف الى العمر فكان كأنه الحجر الجديد يسمو به لتلك الحياة
هيكلاً ؟ أم لأن العام الجديد مجموعة من التجارب تدرك النفس
وتعينها على أن تتكلم ؟ أم يهنيء الناس بعضهم بعضاً في مستهل
الأعوام لأن المرء يحتاج من سبيل العمر مفازة فخرج من مخاوفها
سالماً ، وقطع طريقاً فلم يضل فيها ، ولم يك فيها من العائرين ؟
أم يهنيء الإنسان الإنسان بالزمن الذي انقضى من العمر فأصبح
ما سوف يتحمله الإنسان من سنى العيش وانصبه أقل عدداً
وأخف أحمالاً وإثقالاً ؟ !!!

لو أنصف الناس لجسوا التهانيء على ما في الحياة من قيم ،
وإن عاماً جديداً يفتح سبيله في عمر الإنسان العاقل الحكيم لهو
نعمة من الله قد يستفيد المرء من بركاتها ، ويشقف بعظاتها ،
ويرفع النفس بتجاربها وآياتها .

✱
✱ ✱

إذا كان لنا أن نستقبلك أيها العام الهجري الجديد بنوع من
أنواع العبادة عملاً بوصية أهل التقى الذين يستحب عندهم بناء السنة على

— ١٧٥ —

الخير لكى يكون ذلك أحب وأرجى لدوام بركة الله ، فتقبل منا
ربنا دعاء خالصاً نرفعه الى وجهك الكريم مخلصين .

اللهم لقد قطعنا من العمر مراحل فيها كبونا ، وزلت النفس
وعثرت القدم ، فأعنا على أن نستفيد لبقية طريقنا من كبوة
كبوناها فيما مضى ، وعثرة عثرناها ، فيما اتقضى . اللهم لقد كتبنا
بأعمالنا صحفاً تشهد عندك علينا بما أحسنا وبما أسأنا ، فأعنا
على أن تكتب في صحيفتنا الجديدة ما يزيد فيها الحسنات على
السيئات .

اللهم تقبل منا دعوة صالحة لبلدنا الذى نعيش فى ظله ،
ونستمتع بخيره ، ولأحبابنا الذين ننعم بمطعمهم وودادهم ، وأنا
لنحمدك دائماً ونأمل فى برك وخيرك . آمين .

القاهرة فى ١٧ من يولييه سنة ١٩٢٦

لهجة ابن الخاقان

لما مات السلطان الخليفة محمد وحيد الدين السادس ناوولي
صديق الأستاذ داود بركات جريدة من جرائد الشام لأقرأ فيها
ما يأتى : « تلقينا من سمو البرنس محمد سليم افندى الكلمة
الآتية : يشكر البرنس محمد سليم باسم أعضاء البيت الملكى
العثمانى رجال المفوضية العليا والحكومة المحلية والشعب البيروتى
والوفود التى أتت الى بيروت من الجهات وجميع من تفضلوا
فشاركوا آل عثمان فى تشييع جنازة السلطان الخليفة وحيد الدين
السادس طالباً من الله ألا يريهم مكروهاً فى عزيز . باسم العائلة
الملكية العثمانية البرنس محمد سليم بن السلطان عبد الحميد خان
الثانى » .

لم يقدم الى الصديق تلك الجريدة لأطلع على كلمة شكر
مفيدة فى جريدة سيارة ، لكنه أراد أن التفت الى كلمة قد لا تمر
دون أن تترك فى النفس أثراً غير الآثار التى تتركها فى النفوس
كلمات الشاكرين المحزونين ، كلمة شكر للناس ممن كانوا يقدررون
أن من واجب الناس أن يشكروهم بعد الله ، وان من حقهم حيال

الناس أن يقبلوا الشكر أو يردوه . كلمة شكر ممن كانت تنخفض
لهم أرفع الرؤوس ، وتتضاءل عند عزم أعز النفوس . كلمة شكر
ممن كانت الجباه والأنوف تتضع عند حشمهم ، وترغم عند خدمهم ،
كلمة شكر يكتبها ابن الخاقان الأعظم في جريدة سيارة ، وفي نهر
من أنهارها التي تتسع لأكثر ما تخطه أقلام الكتّابين ،
ولأكثر ما يروى من أخبار الناشرين ، ولأكثر كلمات الآجرين .
فسبحان من يهز العروش ولا يهتز عرشه ، ويضع الأعلياء ،
ويرفع الأذلاء ، وهو باق في عظمته وملكوته ، لا يداني عزته
عز ، ولا تهز عرشه قوة .

إن الخواطر تدعو الخواطر ، وبعض الذكريات تدعو الذكريات ،
وبعض العبر تدعو للعبر . ولقد تذكرت فيما تذكرت عند ما
قرأت كلمة الشكر زيارة لقصر من قصور قياصرة النمسا عرضت
فيه للزائر أمتعتهم الغالية وزخارف الدنيا التي كانوا بها ينعمون ،
ونعيمها الذي كانوا فيه يتقلبون . وفي القصر رأيت غرف نومهم
ونعيمهم ، وغرف أسماهم وعظمتهم . وفي غرفة من الغرف قليلة
الرياش رأيت سريراً بسيطاً ، ومحراباً ، ومنضدة ، وضعت عليها
كتب مقدسة . ووقف بنا الدليل ، عند هذا السرير الضئيل ،
وفي هذه الغرفة الساكنة التي تتجلى فيها آثار الزوال ، ومظاهر

الاضمحلال، قال هنا مات فرنسيس يوسف القيصر وبجوته مات عهد القياصرة . وفي هذه الغرفة التي وقفنا بها وقفة بحيث كل مخايل العزة التي كانت تتجلى فيما رأت العين من غرف تخيل لنا الذل بعد العز، والإقلال بعد الإقبال، والشقاء بعد الهناء، والفناء بعد البقاء، وحول السرير الذي ذهب صاحبه إلى حيث لا يعود وفي الغرفة التي خمدت فيها أنفاس كانت قوية، وخفت فيها صوت كانت تخفت عنده الأصوات، لم يبق إلا صدى يكاد يتردد حول المحراب: أن الملك ليس إلا لله، والعظمة الحققة هي له دون سواه . ثم هبطنا إلى حيث رأينا مكان مراكب القياصرة وتصورنا الخيول المطهيات وجلالة الراكب، ورهبة المواكب، ولكن وقع نظرنا على المركبة التي حملت فيها الملوك إلى مقابرهم على مقربة من تلك المركبات التي كانوا يذهبون فيها إلى مواكبهم، فتذكرنا كذلك أنه يخلف الشقاء الهناء، وقد يخلف الفناء البقاء . فلو علم العاقلون من الملوك والأمراء والسادة والعظماء أن السماء في الأفق قد تتصل بالغباء، ولو فطنوا أن الرفيع قد يسفل، وأن نجمه قد يأفل، لهونوا على أنفسهم نزعات الكبرياء وخاطبوا الناس بلسان الناس فان لهم يوما تستبد بهم فيه يد الحدثن وتصير لهجتهم كما صارت لهجة ابن الخاقان.

الرضا

... في الأرض زهرة ناضرة تشع من حولها هالة من الحسن والبهاء ، قد تحسبها ابتسامة لماعة كالأمل . وقد تحسبها مراحاً تطمئن إليه العين ويستريح إليه النظر . وقد تحسبها نوراً ينبعث من الأرض ليضيء بأشعة البشر ناحية من نواحي الوجود ، وقد تحسبها عيناً تتجه الى السماء . ويلوح من حولها الرجاء .

وفي الأرض كذلك زهرة ذابلة قد تحسبها مثلاً للالت قباض والكآبة . وقد تحسبها النجم الآفل ، والحسن الزائل ، وقد تحسبها كلمة الالتقطاع أو تحية الوداع .

وربما كان السبب إلى نضرة الزهرة الباسمة ذلك الشباب الذي يتسلط على حياتها . وربما كان في ماء الحياة السارى في أنسجتها ، وربما كان في محيطها المندى الذي يدفع عنها أعراض الذبول ، ويبعد عنها زمن الأفول ، ولكن أيا كان السبب فإن الزهرة الناضرة تظل رمزاً للبشر والرضا .

وربما كان سبب انكماش الزهرة الذابلة مرضاً أصابها ، أو قيظاً لفحها ، أو هرمماً بلغ منها ، ومهما تعددت الأسباب فانها تظل رمزاً للالت قباض والعبوس .



مثل الانسان الذى يفيض البشر فى وجهه ، وينطلق الرضا
من محياه ، مثل الزهرة الناضرة تبعث الأنس الى النفوس ، والقرّة
إلى العيون ، والانشراح إلى الصدور ، ومثل الانسان المكفر
الوجه ، المقطب الجبين ، مثل الزهرة الذابلة إذ يدعو النظر اليها
الى الأسى والسامة .

أن الأول ليفهم لغة الاشراق ويحن إلى السرور . أما الثانى
فلا يعرف إلا الظلمة ولا تنطلق نفسه إلا إلى الديحور . الأول
يطرب للغناء ، ويتشوق لحنين الحداء . أما الثانى فلا يتسمع من
الوجود إلا صيحة الشوم ، ونعقة البوم ، الأول يأنس لزققة
الأطيار ، وحفيف الأشجار . أما الثانى فيعبس للأقدار ، وتسود
فى نظره أضواء الأقار .

قد يجد العبوس لحالته تلك من الاتقباض أسباباً . فتارة
يحسبها من ضنك العيش ، وتارة يتوهم لها أسباباً من السقام ،
وأوهاما من الآلام ، وتارة يحسبها فى خيبة الرجاء ، أو فى شدة
البلاء ، لكن لعل أدق الأسباب إلى سرحالته استعداده للجزع
من الوجود ، وخلوه من درع الرضا ووقاية التسليم .

لو علم الانسان حق العلم أن في قوة الإيمان بالأزل وقوانينه
ما قد يخفف شدة شقائه ، ووطأة ضرائه ، لما ترد في أن يأخذ
طريق الفلاسفة الرواقين فأمن بما تنزل به اليه سنن الكون
بأرضه وسمائه وقبل الأمور بالرضا .

*
* *

روى أن النبي العربي سأل طائفة من أصحابه ما أتم ؟ قالوا
مؤمنون . فقال ما آية إيمانكم ؟ فقالوا نصبر على البلاء ، ونشكر
عند الرخاء ، ونرضى بمواضع القضاء . فقال النبي : مؤمنون
ورب الكعبة .

وروى الغزالي فيما روى أن عابداً عبد الله دهرًا طويلاً فأرى
في المنام أن فلانة الراعية تكون رفيقة له في الجنة ، فسأل عنها
العابد إلى أن وجدها ، ثم استضافها لينظر الى عملها الذي تستحق
عليه نصيبها من الجنة والخلود ، لكن العابد كان في دهشة من أمرها
عند ما كان يبيت قائماً وتبيت نائمة ، ويظل صائماً وتظل مفطرة ،
فقال لها العابد أما لك عمل غير ما رأيت ؟ فقالت الراعية ليس لي
والله إلا ما رأيت . فألح العابد عليها في أن تذكر ما لها من
سجايا وخصال ، فقالت المرأة لي خصلة واحدة : هي أنني إن

كنت في شدة لم أتمن أن أكون في رضاء ، وإن كنت في
مرض لم أتمن أن أكون في صحة ، وإن كنت في شمس لم أتمن
أن أكون في الظل ، فوضع العابد يده على رأسه عندئذ وقال
هذه والله خصلة يعجز عنها أكبر العباد .



وصفوة القول أنه إذا كان من حق الإنسان أن يضجر بما
هو واقع ، ويعبس ويشور مما يؤلمه من الحياة ويؤذيه ، وإذا كان
من حقه كذلك أن يكون طموحاً إلى ما ينبغي أن يكون ، غير
قنوع بما هو كائن ، فإن من واجبه أيضاً أن يتسم للعيش ويعرف
البشر والرضا ، في حوادث الدنيا وأمور القضاء .

القاهرة في ٥ من اغسطس سنة ١٩٢٦

عام ٢٧

... وأنت يا عام تقبل على الدنيا ، ثم تنطوى عنها . وقد انطوت من قبلك أعوام ، وتقدمت من قبلك أيام !! فإذا تراك شاهدًا من الوجود ؟

شئء يحول ، وشئء يزول .

زهر يتفتق ، وأمل يتحقق .

عين تفيض ، وأخرى تغيض .

طير يغرد ويحن ، وطير ينوح ويئن .

نبت يتطلع للنماء ، وشجر يرشحه الذبول للفناء .

كل ذلك ، وأكثر من ذلك يا عام ، سوف تشهده ! ثم قد تقبض من جمعتك قبضة تلقىها في الكون مصادفة ، وتثرها ثراً من غير ترتيب ، فبعضهم يصب من ثرتك ابتسامات مشرقة ، وبعضهم يصيب منها دموعاً مترقرة . ومنهم من يصيب اقبالاً ، ومنهم من يصيب إقلالاً . ومن يصيب السلام ، ومن يصيب الخصام . وقد تأتى يا عام بالعجائب ، وقد تظهر فيك يا عام الغرائب ، وقد تجرى في مجراك المتناقضات ، والمتشابهات !!

فأنت إذن أيها القادم الذي يدرج الى الوجود في متصف
ليلة السبت من آخر العام المنصرم ؟

بل ما أنت أيها الجديد الذي تتسع للقائه أذرع المتفائلين
بالترحيب ، وتوسد له صدور الشباب الوثاب للحب والأمل ؟
بل ما أنت أيها الكائن الذي يستقبله الناسكون في مناسكهم
بالوان الصلوات ، وأنواع العبادات ؟

بل ما أنت يا هذا الذي تحتشد له أقوام من الفرنجة في بيعهم
فيهللون له تهليلاً ، ويرتلون له بكرة وأصيلًا .
بل ما أنت يا هذا الذي تحتشد لطلعته .

هواة متاع العيش في زمن الصبا وتختلسو اللذات قبل فواتها
فيشرب شاربهم ، ويطرب من يطرب .

بل ما أنت أيها المتمثل في جنح الليل بمسوحك السوداء
لثكلى مسهدة تذكر عزيزا غاب محياه في الثرى .
ما أنت ، ما أنت ؟

ما أنت إلا احدى دورات الفلك الدوار وكم للفلك من دورة
وما أكثر ما يدور الفلك !

دورة يجعلها الناس مقياساً لبرهة من زمن بعيد المدى . دورة
لا قيمة لها في ذاتها وما أصغرها إذا قورنت بالدهر والدهر ممدود
غير محدود . إنك لصغير صغير !! ضئيل ضئيل !!

على أنك يا عام قد يأخذك الغرور إذ تذكر لنفسك أنك
بعض الزمن الذي يعمل في تتابع الحادثات ، وتوالى النازلات .
ويشقق الأرض صدوعاً ، ويهبط الجبال خشوعاً . ويزلزل
الأرض زلزالها ، ويخرج من الأرض أثقالها . ويدك العروش
العالية ، ويجدد الآمال البالية .

قد يأخذك الغرور وتتولاك العظمة !! ولكن لا عظمة
لك حقاً مهما تعاليت إلا بسرين يخلعها عليك ابن آدم من أسرار
نفسه : الاستكانة للعظمة المطلقة ، وقوة الرجاء في المال .

فأما الأول فانك تخر خاشعاً عند ما يهتف لك من أعماق
الأبدية صوت يصيح : ما المبدأ وما المصير ؟ ؟
فنقول لله الأمر جميعاً .

وأما الثاني فالرجاء الذي تقيضه الانسانية من ضميرها لتلقيه
في طياتك وتوجهك في سبيل الخير ، في سبيل الكمال .

الايثار

فى مثل هذا اليوم ، من الأسبوع الفائت ، أشرت على صفحة هذه الجريدة الى أن المنقب فى أطلال القديم يجد بين الترب تبراً ، وفى مبعثر الحصى ذهباً . وكنت أحقق لنفسى ما أشرت اليه ، فأخرجت من خزانة كتيبى بعض الأسفار ذات الورق الأصفر ، ذات الطبع الكرىه ، ذات الهوامش والحواشى ، وكلها أو أكثرها مما وضع المتقدمون عليهم الرحمة ولهم الفضل . وكلما فسحت لى مشاغل الحاضر ، تناولت هذه الأسفار لأسمع منها بعض نعمات الغابر ، واليوم أحبيت أن أشرك معى القراء فى بعض ما سمعت .

*
* *

قرأت للغزالى ما يأتى : « قال حذيفة العدوى انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لى ومعى شىء من ماء وأنا أقول ان كان به رمل سقيته ومسحت به وجهه ، فإذا أنا به ، فقلت أسقيك ؟ فأشار إلى أن نعم ، فإذا رجل يقول آه ، فأشار ابن عمى أن انطلق بالماء اليه . قال فجئته فإذا هو هشام بن العاص ، فقلت أسقيك ؟

فسمع به آخر، فقال آه . فأشار هشام أن انطلق به اليه . فجثته
 فاذا هو قد مات فرجعت الى هشام فاذا هو قد مات ، فرجعت
 الى ابن عمي فاذا هو قد مات . رحمة الله عليهم أجمعين »

ثم قرأت ما يلي : « قيل خرج عبد الله بن جعفر الى ضيعة
 له فنزل على نخيل قوم فيه غلام أسود يعمل به فاذا أتى الغلام
 بقوته دخل الحائط كلب ودنا من الغلام فرمى اليه الغلام بقرص
 فأكله ، ثم رمى اليه الثاني والثالث فأكلهما ، وعبد الله ينظر
 اليه . فقال يا غلام كم قوتك كل يوم ؟ قال ما رأيت . قال فلم
 آثرت به هذا الكلب ؟ قال ما هي بأرض كلاب ، أنه جاء من
 مسافة بعيدة جائعاً فكرهت أن أشبع وهو جائع »

*
* *

وان الفكر لتسوق الفكر ، كما أن الذكريات تبعث
 الذكريات ، فرحم الله ذلك الزمن الذي يروى لنا أن من أهله
 من كان يؤثر حياة غيره على حياة نفسه ، فبمثل هؤلاء سادت
 الشعوب . ورحم الله ذلك الزمن الذي كان يعتقد الناس فيه
 بالفضائل ، ويؤمنون بأن الله يبويء جنته من ينكرون الأثرة ،
 ويعملون للأيثار . بل رحم الله ذلك الزمن الذي فيه كان يرى

بعض أهله أن الجدير بأمر من الأمور أولى به أن ينزل عليه هذا الأمر، وأن الأحق بشيء أولى به أن يصيب ذلك الشيء، لأنه حقه . رحم الله ذلك الزمن الذي قدر فيه الإيثار قدره .

والآن نجد الأثرة تسمع صوتها فيخفت صوت الإيثار . يزاحم عديم الكفاءة الكفء ليقصيه بمختلف الحيل الدينئة عن منصبه ، وينزل بالفارس المغوار بأحط الأساليب عن مركبه . لا يقنع الغنى الميسور بيسره ، فيتامس ببناء ثروة من مال الفقير ويزيده عسراً على عسره . وأين ذلك الزمن الفائت . وأين فضائله أين ؟

*
* *

بمثل أساليب الغابر الفاضلة ، تعز الدول وتسمو الأمم ، وبمثل الأثرة والأناية الحاضرة تذلل الحكومات وتضمحل الشعوب ، ولو فشا في الناس خلق الإيثار لما تنازعوا في وزارة ، ولا تنافسوا في إمارة !!

القاهرة في ٦ من فبراير سنة ١٩٢٧

الدرس والحسد

تقشى الناس خلق ممقوت ، صورته مزعجة ومنظره دميم .
يتزيا هذا الخلق أحياناً بزي زاهى اللون ، فيخفى جمال لونه أكثر
دمامته ، ويتحل لنفسه أحياناً اسماً غير اسمه المنكر ، فيلقاه الناس
بالصدر الرحيب ، كأنه العزيز الحبيب . لكنهم وأسفاً يخدعون
عن أمره ، غافلون عن مخبره ، مغترون بمظهره .
ذلك الخلق هو خلق الدس والمكر السيئ .

*

* *

تشاكل أحياناً صورة هذا الخلق صورة القدرة والمهارة ،
فينحى للناس أن صاحبه ماهر ، لأنه أوقع غيره فى مكيدة يعسر
على هذا الغير أن يخلص من شرها المستطير ، أو يبدو للناس
أن صاحبه قادر لأنه يهيم الواضح وعقد المحلول ، وتارة يقال
لصاحبه داهية لأنه يستخدم شتى الأساليب وأنواع الحيل ليظفر
بغرضه الباطل ، وتارة يسند لصاحبه الذكاء لأنه يتخذ مختلفة
الوسائل ويعمل بشتى الأسباب للوصول الى ما يريد من السوء ،
وتارة يوصف صاحبه بالسياسة لأنه يسوس الأمور بلباقة وكياسة
ليصل الى ما تقنع به شهوته وترضى به أنانيته .

لو أنصف الناس حقاً لضمنوا بهذه العبارات على غير معانيها
التي رسمت لها، وجبست عليها، ولا حرفوا تلك الصفات وجعلوها
لغير حقيقة موصوفها . وقصارى القول أنه لو أنصف الناس
لسموا الأشياء بأسمائها واستعملوا كلمة الدس لهؤلاء الذين يتسترون
بثياب مستعارة، من الدهاء والحذق والمهارة، ليسيئوا إلى هؤلاء
الذين لا يؤذون أحداً، وليمنعوا الخير عن يستحقونه، وليدفعوا
الشر إلى الذين طابت نفوسهم، الذين لا يحذرون كيد الغادرين،
والذين يستأمنون الناس لأنهم غير ما كرين . ومما يذكر لهذه
المناسبة ما قرأته في كتاب من كتب الأدب .



« قيل إن رجلاً من العرب دخل على المعتصم فقربه وأدناه
وجعله نديمه وصار يدخل على حريمه من غير استئذان . وكان له
وزير كثير الحسد فغار من البدوى وحسده ، وقال في نفسه
لا بد من مكيدة لهذا البدوى فإنه قد أخذ بقلب أمير المؤمنين
وأبعدني منه فصار يتلطف بالبدوى حتى أتى به إلى منزله، وصنع
له طعاماً واكثر فيه من الثوم ، فلما أكل البدوى قال له احذر
أن تقرب من الأمير فيشم منك رائحة الثوم ، ثم ذهب الوزير

إلى أمير المؤمنين فخلاً به وقال ان البدوى يقول عنك للناس ان
 أمير المؤمنين أبخر. فلما أتى البدوى طلبه المعتصم ، فلما قرب منه
 جعل كمه على فمه مخافة أن يشم الأمير منه رائحة الثوم ، فلما رآه
 أمير المؤمنين وهو يستر فمه بكمه قال إن الذى قاله الوزير عن
 البدوى صحيح ، فكتب المعتصم كتاباً الى بعض عماله يقول فيه
 إذا وصل اليك كتابى هذا فاضرب عنق حامله . ثم دعا البدوى
 ودفع إليه الكتاب وقال له امض به الى فلان وحيء سريماً
 بالجواب ، فامثل البدوى ما رسم به المعتصم وأخذ الكتاب
 وخرج به من عنده ، فينما هو بالباب إذ لقيه الوزير فقال له
 أين تريد ؟ قال أتوجه بكتاب أمير المؤمنين إلى عامله فلان ، فقال
 الوزير فى نفسه ان هذا البدوى ينال من التقليد مالاّ جزيلاً .
 فقال له ما تقول فيمن يريحك من هذا التعب الذى يلحقك
 فى سفرك ويعطيك ألفى دينار ؟ فقال له أنت الكبير وأنت
 الحاكم ، ومهما رأيته من الرأى أفعل . فقال هات الكتاب ،
 فدفعه إليه وأعطاه الوزير ألفى دينار ، فركب الوزير وسار بالكتاب
 إلى المكان الذى هو قاصده . فلما قرأ العامل الكتاب أمر
 بضرب عنق حامله .

وبعد أيام تذكر الخليفة أمر البدوى وسأل عن الوزير ، فأخبر
بأنه أياماً ما ظهر ، وأن البدوى بالمدينة مقيم ، فتعجب المعتصم
من ذلك ، وأمر باحضار البدوى وسأله عن حاله فأخبره بالقصة
التي اتفقت له مع الوزير . . .

فقال المعتصم قاتل الله الحسد بدأ بصاحبه فقتله . ثم خلع
على البدوى واتخذ مكانه وزيراً .

*
* *

والخلاصة أن الدس والحسد طالما أوقعا في الندامة ، وأبعدا
عن مواطن السلامة . فهل لأربابهما من عظة إذا هم قرأوا ما تقدم
ثم قرأوا « ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله » وهو حكم جاء به
الكتاب الأكرم ، وجرى به في شؤون الخلق القانون الأعظم ؟

القاهرة في ١٧ من فبراير سنة ١٩٢٧

نصف شعبان

فى هذا الشهر، فى ليلة الخميس الفائتة مثلت لقطة من الناس ليلة لها ميزة عندهم على ما تقدمتها من ليال وعلى ما يعقبها من ليال : تلك ليلة النصف من شهر شعبان .

لكن شعبان قد حل على كثير من الناس دون أن يتنبهوا لمقدمه ، ودون أن يحفلوا بمجيئه وقد أرخت لياليه سدولها على جهات من المدينة دون أن يظهر فى هذه الليالى أثر من آثاره . وقد بلل ظل شعبان حدائق بعض القصور دون أن يشعر أهلها بأن هذا الطل والندى يغاير كل طل وندى . وقد غمرت أضواء بدره كثيراً من المساكن دون أن يكون فى ضياء البدر ما ينبىء بشيء خاص عن شهر شعبان . وذلك لأن الحياة الاجتماعية وأحوالها أنست الناس شهوراً بشهور ، وبدلت التواريخ بتواريخ ، وأظهرت أياماً ومسخت أياماً . وهذا من شؤون الحياة والحياة تظهر وتختفى ، وتمسح وتثبت ، والحياة الاجتماعية سلطان قادر، وحكم قاهر .

و بينما كنت أسير في ناحية من المدينة طبع عليها مظهر
الحياة الغريبة إذ أقبل على رجل معمم رث البزة سقيم المنظر ،
وفي يد الرجل صحف فيها دعاء نصف شعبان ، وألح على أن
أبتاع من بضاعته . ولست أدري ما الذي حمله على أن يتوجه
ببضاعته ناحيتي ، دون جماعة من المطر بشين كانوا على مقربة مني
ومنه ، لولا أن رآني أسير بجانب شيخ صديق ينبعث من وجهه
نور الايمان ، وتبدو تقوى الله على محياه .



شريت من الرجل صحيفة من صحفه وطويتها بجيبى ، ثم
مضيت في سبيلى ومضى الرجل في سبيله في هذا الحى
الأوروبى ، على أننى تذكرت عندئذ أننا الآن في شهر شعبان
ونخيل الى أن بائع هذه الدعوات رسول غريب من قرية بعيدة
نائية الى هذه الجهة التى كان يسعى فيها بصحفه ويعرض على
الناس بها بضاعته . بل خيل الى أنه رسول الغابر الى الحاضر
ليذكر أن بين الغابر والحاضر رابطة لا تنقطع وجبلاً موصولاً .
بل خيل الى أن الرجل وما يحمل كأنه صورة من تلك الصور

التي تبعث الى النفس التأمل فتتحرك فيها المستقر من الخواصر .

الناس لاهون بأعمالهم في الحى الفرنجى من المدينة عن
شعبان . والقهوات غاصة في ليلته بن هم في شغل عن دعواته .
وأهل السمر يسرون في نواديهم . وأهل الخلاعة يقطعون الليل
أوشطراً من الليل في ملاهيهم . ومع ذلك فالرجل الذى جاء
من حى وطنى في بعض منازلهم يقرأ القرآن إحتفاءً بليلة شعبان
ويصلى المصلون ، ويتنهل المبتهلون . كأنه يقول لهذا الحى
الأوروبى من المدينة ولن من أهله لا يدرون ما شعبان وما ليلته :
أن الناس جميعاً يتشابهون عند الشدائد ، وتدق قلوبهم على وتيرة
واحدة في الحزن ، مهما اختلفت سحنهم ، وتغيرت شهورهم ،
وتعددت طقوسهم ، وأنه عند دقائق قلوبهم المتشابهة في الخوف
والرجاء يهتفون لله بمعنى واحد لا يخرج عما في صحيفة دعاء نصف
شعبان : اللهم أنك ظهر اللاجئين ، وأمان الخائفين ، وجار
المستجيرين .

العفر الطاهر

متجملة أكثر مما هي جميلة ، متظرفة أكثر مما هي ظريفة .
دون الطويلة على أنها ليست بالقصيرة . كانت ترتدى جلباباً
من الحرير السماوى الشفاف وقد شمرت عن بعض ساقها
الدقيقتين ، إذ جوربتهما يجورب يروح لونه بين صفرة بعض
المرمر وحمرة بعض الورود . . . ارتفع كم جلبابها ليكشف عن
معصمها المبيض وكانت مشيتها بطيئة فى شئ من التثاقل
والعجب والعظمة ، وليس يحول صدرها المرتفع دون تموج
الجسم وتثنى الخصر ، وحيث كانت تسير تضوع منها شذى
المسك والياسمين . أما عينها فكانتا مكتحلتين بالسواد المصنوع
الذى تعدى بعضه باطن الجفنين ، ومآق العينين . وتعلو بشرة
وجهها طبقة من المسحوق الأبيض الذى يمازجه آخر أحمر وعلى
رأسها قبعة عليها طاقة من الزهر المصنوع .

أما صاحبها فكان رداؤه أسود أنيقاً وقبعته من النوع الرخى
السخى . حليق اللحية ، أزالّت الموسيقى طرفى شاربيه ، وشذب
المقص ما يبق منهما ، ولم يذر إلا ما هو دون فتحات الأنف .

منديله الأبيض يطل مشرباً على صدره بطرفين يشرفان الى العلو،
وفي فتحة من فتحات معطفه زهرات باسمة، وفي يسراه عصا
كأنها تعتمد على عنايته في صيانتها أكثر مما يعتمد عليها في صيانتها.

††
†† ††

السيد والسيدة كانا ينتظران القطار على أفريز إحدى محطات
الضواحي ويسيران ثم متبخرين مقبلين مدبرين .

وقبل وصول القطار بدقائق قليلة أقبل من خلف الأفريز
فاعل من الفعلة كأنه نبت من الأرض طفرة واحدة . وكان حافي
القدمين ، مفتول العضل يرخي لحيه سوداء قصيرة مغبرة ، عليه
سروال يظهر ساقه داكنة ، وفوق قامته قميص استحال بياضه
الى لون التراب ، وعلى رأسه شبه عمامة ، وقد أرسل على كتفه
جلباً أسود يظهر فيه مزيج من الجير والرمل والحمة . هو من
هؤلاء العمال الذين يعملون في تشييد المنازل أو حفر الجنادل .
وكأنه حين رأته كان قد فرغ من عمله لساعته لأن آثار الجهد
تبدو عليه . ويظهر أن الرجل المكدود كان مستغرقاً في فكره
أو أوصابه فلا يلتفت ما أمامه ولا ما حوله .

خطا الفاعل خطوتين أو ثلاثاً أمام السيد الأنيق . ١١

المتأثرة ، ثم قبل أن يرتدى رداءه المسدل على كتفه أخذ ينفذه مما علق به من العفر . وما كاد يلوح به مرة أو اثنتين في الهواء حتى لحقه السيد الأنيق صائحاً ، متوعداً ، مهدداً ، رافعا عصاه اللينة ليهوى بها على المتكئين الصليبين الشديدين ، ولكن الفاعل وقد أخذه نوع من الذعر لم يفه إلا بعبارة واحدة :

هذا تراب طاهر ، أنه لتراب طاهر ! !

⋈
⋈

حقاً لم يكن صاحبنا الفاعل ليعلم أن وراءه المتأثرة المعفرة بالمسحوق الأبيض ليتقى الشر من أزجه اليسير من عفر العمل . وحقاً لم يكن صاحبنا السيد ليتذكر وقتئذ أن أمثال القصر الأنيق الذي يسكن الى صاحبة فيه قد ترك تشييده في ثوب العامل ما من أجله أهين واتهر .

ألا فارخ بربك ساعديك أيها الملوح بعصاه ، المشتمر من تراب العامل ، وأطرق إجلالاً فان الغبرة التي تجلج ثوب هذا المنتج الكادح وتغمر وجهه أطهر وأكرم عند الله من تلك المساحيق التي ذرتها صاحبك على وجهها لتجعل منها عليه وجهاً آخر .

التصنع والتواضع

صاحبي مفرط الشغف في أن يعد من أهل الحسب . وله
ولع بأن يسند الى أهل النسب دون أن يكون من النبلاء في
أرومته ، ودون أن يفضل الله عليه ببعض تلك الملامح التي قد
يتميز بها أهل الانساب ، ليس بذى القوام السمهرى الرشيق
وليس بذى الأنف الأفتى أو الأشم ، وليس بذى راحتين
الرخصتين الصغيرتين ، وليس في طبيعة صوته غنة ، وليس فيها
صحل . ليس بذى الملامح التي تتم عن وراثة في النعمة وسالف
الطمأنينة ، لكن صاحبي مع ذلك يتأنق في لبسته ويتعالى في
مشيته كأنه يتطلع الى أن ينطبق عليه قول ابن الاعرابي :

شبهت «مشيته» بمشية ظافر يختال بين أسنة وسيوف
هو يشمخ بأنفه وأنفه أدنى الى أن يكون غليظاً أفطس ،
وهو يحمل يده بتقليم الاظافر وطلائها مع أن أظافره تنبت في
أصابع دق أسفلها وغلظ عاليها تتفرع من يده الرخوية الشكل .
وصاحبي اذا أراد أن يتكلم يبحث عن غنة الصوت فينزل صوته
الى الخنف ، ويبحث عن الصحل فينقلب صوته الى النعير . أما

إذا ذهب الى قهوة فهو لا يذهب إلا الى حيث يربط ابناء
 الذوات ويتعفف عن أن يجلس في القهوات التي يؤمها أهل
 الحرف وأهل التجارة وسادتنا من أرباب المعاش وصغار الموظفين .
 وإذا ذهب الى عزاء فانه لا يهدأ باله إلا اذا استطاع أن يتخطى
 الصفوف ويضع نفسه حيث يتقدم مع المتقدمين . كل ذلك
 صاحبي ينسى ان الناس لا يجهلون منزلته فلا يغنيه أن يتقدم
 في الصفوف ولا يغنيه أن يحط في أكبر القهوات ، وليس يضع
 معالم حقيقته تشامخ الأنف والتهادى في المشية وتصنيع الصوت
 والتجبر في معاملته مع صغار المرتقة وتنكر ذويه ممن لا ترتفع
 بهم سمعته ، ولا تروج بذكرهم بضاعته .

*
* *

لأمثال صاحبي الذين يعولون على التصنع والتجمل والتظرف
 في تفسير رأى الناس فيهم أريد أن أذكرهم بقول وأن أروى لهم
 قصة : فأما القول فلابن الخطاب رضى الله عنه حين نظر الى
 صفوان مبتذلاً لأصحابه فقال : هذا رجل يفر من الشرف
 والشرف يتبعه . وعلى هذا فالشرف كما أنه يتبع الرفيع ، فهو يفر
 عن الوضع مهما تشارف وترافع

-- ٢٠١ --

وأما القصة فيروى أن عمر بن عبد العزيز أتاه ليلة ضيف
وكان يكتب فكاد السراج يطفأ . فقال الضيف آأقوم الى
المصباح فأصلحه . فقال عمر ليس من كرم الرجل أن يستخدم
ضيفه . قال الضيف : أفأنبه الغلام ؟ فقال عمر هي أول نومة
نامها ، ثم قام عمر وأخذ البطة وملاً المصباح زيتاً . فقال الضيف
أقمت أنت بنفسك يا أمير المؤمنين . فقال عمر : ذهبت وأنا
عمر ورجعت وأنا عمر ما نقص منى شيء وخير الناس من كان
عند الله متواضعاً .

القاهرة في ٢٧ من مارس سنة ١٩٢٧

أيام العيد

أيام الأعياد هي دورات للفلك كغيرها من دورات الفلك .
لا يتغير فيها نظام السماء في شيء ، ولا تتغير حركة الأرض قيد شعرة
عن مجراها . الكواكب تسير في الأفق الأعلى وفق قانونها كما
شاء الله أن تسير ، والأرض كما كان الأمر منذ الأبد ما برحت
تستقبل الجديدين فتعبس تارة لوجه الليل ، وتبسم أخرى لوجه
النهار . وما زالت الشمس كما يتصورها الناس تبرز من خلف
ستارة الأفق من فجر كل يوم ثم تسبح لتوسط السماء ، ثم تتحدر
رويداً رويداً حتى تغوص وتغيب ، ثم تعود فتطفو مرة أخرى
لترى الناس وجهها كأنه أصفر رهبة من عمق الفضاء وملكوت
الله لا يذرع ولا يحد .



لكن إذا كان عالم الأفلاك لم يتخلف عن نواميسه في أيام العيد
فهناك عالم آخر ظهر فيه التغير واضحاً جلياً . ذلك هو عالم النفوس .
توافق الناس في أيام العيد أن تهتز نفوسهم هزات شديدة
اصطلحوا على تسميتها بالسرور أو الفرح . ومن شأن تلك الهزات

أن تحدث في أمور الناس غير ما ألفت الناس في كل يوم . تحدث في المدن والقرى حركة أشد ، وتحدث في لباس الكثيرين أناقة وكياسة ، وتحدث في وجوههم زهاء وبشرا ، وتجرى على ألسنتهم دعوات وشكراً .



في مسافة . من الطريق لا تزيد عن المليون شهدت أكثر مظاهر العيد . رأيت بعض الأصدقاء يقبلون على بيت صديق لهم . وجميعهم يحملون على ألسنتهم دعوة لأعزب الدار ان يهيء له الله ما تصبو اليه نفسه من عروس صالحة ، ولتلميذ الدار أن يعينه الله على أداة الامتحان ونيل الشهادة ، ولشيخ الدار أن يتقبل الله منه . تقواه ويتمتع بزيارة حبيبه الرسول ، ولعريس الدار أن يرزقه الله بخير الخلف .

الناس جميعاً يعلمون أمر الدعوات في كل يوم من أيام العام لكنهم قد توافقوا أن يرسلوها في العيد حارة صادقة كأن الله قد خصص ذلك اليوم لدعوات عبادة ليتقبل منها ما يتقبل ، وكأن الناس ينتظرون في هذا اليوم أكثر منه في كل يوم رحمة الله عليهم ورأفته بهم .

ثم رأيت بعد ذلك عربة فيها صبية يصيحون ويصخبون ،
ويضجون ، وكل دلائل السرور باذية عليهم . أوردتهم بالدماء
مترعة ، وأنفاسهم مسرعة ، وحركاتهم كثيرة ومنوعة وضحكاتهم
غزيرة ، ووجوههم مشرقة مستديرة ، وكل ذلك من آثار الفرح
والناس تعلم حقا في كل يوم من أيام العام ، ما السرور والفرح ،
لكنهم توافقوا في أيام العيد على أن يستعينوا بمظاهر الفرح على
خلق الفرح .

ثم رأيت بعد ذلك عائلة تتكون من أب يسير آخذاً بيد
طفله يجرى وراءه ، ووراءهما أم يتقدمها ابنتان لابستان جلبابيهما
الحمراوين الجديدتين ، وفي أيديهما بعض ما يبيع المرتقة من حلوى
ولعب . وما كان أشد هذا المنظر وقعاً في نفسى إذ بدت لى عين
الأم الرؤوم لا ترى في هذه الطرقات الهاشجة المأبجة إلا غبطة
أبنائها في ثيابهم الجديدة فرحين مستبشرين . آه لو علم الذين
يخلعون كل يوم ثيابهم الغالية ليستبدلوها بغيرها من الثياب
الجديدة الغالية قيمة الثوب الجديد عند من يحددونه لأبنائهم
مرة في كل عام !!

ثم رأيت كذلك عربة يركبها شباب من المستهترين يرقصون ،

ويطربون ، ويشربون ، ويتميلون ويترنحون ، وفي القول
يتذلقون ، والناس حقاً يعلمون في كل يوم من أيام العام رذيلة
الاستهتار لكنهم توافقوا أكراماً للعيد أن يتساحوا في بعض
مظاهر الاستهتار .



أيام العيد إذن تتجلى في عالم النفس في نزعات مشتركة وتوافق
بين الناس على أن يتهلوا ويفرحوا ويوسعوا على أنفسهم
ويتساحوا .

والناس يهيئون أعيادهم لأنفسهم بأنفسهم دون أن تتغير
الأرض والسماء بما يعملون ، ففي الكون تظل مواطن اللذة ،
وفيه تظل مواطن الألم . وانك حيث ترى في يوم العيد الموسر
يتبختر في جديد كسائه مطمئناً في فرحه وغبطته ، قد ترى المعسر
الكادح في ثيابه البالية لا يفكر إلا في عسره وشقوته !!

وإنك في النهج الذي يجتمع فيه المجتمعون ويعيد فيه العيدون
قد تجد مكاناً يفرق فيه المفترقون ، ويشيع فيه المشيعون !!
إن أشد الناس استفادة من الحياة من استطاع أن يجعل
جلبة آمالها وأفراحها ، تستر ضجيح آلامها وأتراحها .

القاهرة في ١٠ من إبريل سنة ١٩٢٧

الاغراق في المجاملة

من الناس من تقيض الطبيعة على نفوسهم ، وتلامس فعالهم
مظاهر الظرف والحياء فيكرمون من ليس بكرمهم جدير ،
ويتلطفون مع من ليس بلطفهم أهلاً ، فإذا كان من قواعد
الظرف والكرم أن يتلطف المرء بمن لم يجعل نفسه موضعاً للكرامة
والاحسان ، فمن العدل ان نكافئ أهل الخير بوفرة الاقبال عليهم
وأهل الشر بمظاهر الانصراف عنهم .

قال المتوكل لابي العيئة الى كم تمدح الناس وتذمهم فقال :
ما أحسنوا وأساءوا .

ولقد يكون في الاقبال على من لا يستحق الاقبال والمجاملة
تقرير في حق الجماعة وفي حق من يحامل . أما في حق الجماعة
فان وضع الدنى الوضع ، في حسن المعاملة ، مكان الرفيع فن
شأنه أن يعمل في تقديم الأشرار وتأخير الأخيار . ومن حق
الأثم أن يتقدم أخيارها ، ويتوارى أشرارها .

وأما في حق الشخص الذي يحامل فذلك لأن صاحب
العيب اذا لم يشعر بعيبه ربما زادت نفسه مع الزمن سوءاً . وإذا

لم يذكر الكريم بحامده ربما ضعفت في نفسه محامده .
قال خالد بن سالم دخلت على أسامة بن زيد فأثنى على ثناء
حسنًا ، ثم قال لي انما حملني على أن امتدحك في وجهك اني
سمعت النبي يقول إذا مدح الانسان في وجهه ربا الايمان في
قلبه ولقد قيل في الحديث : اذكروا الفاسق بما فيه . ولم يكن
ذلك من الاغتياب .



ولربما كان من أجل ما اعتمد عليه الدين الحمدي في إصلاح
الجماعة انه جاء بقاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى كان
في الاسلام بذلك نظام الحسبة واشترط بعضهم في المحتسب الذي
يحق له أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر أن يكون مأذوناً
في ذلك من الحاكم ورأى بعض العلماء فساد هذا الشرط فأثبتوا
لاحاد الرعية من عقلائها حق الحسبة من تعنيف الغير في سبيل
المصلحة ، ومن كسر الملالهي ومن اراقة الجهور وما إلى ذلك مما
كان السلف الصالح يستيحيون عمله للخير والمصلحة .



روى عن حيان بن عبد الله قال : تنزه هرون الرشيد بالدوين

ومعه سليمان بن أبي جعفر فقال له هرون : قد كانت لك جارية
تغني فتحسن فجئنا بها . قال فجاءت الجارية فغنت ، ولكن
الخليفة لم يحمد غناها . فقال الخليفة ما شأنك يا جارية ؟ فقالت
الجارية ، ليس هذا عودي فقال هرون للخادم جئنا بعودها .
قال فجاء الخادم بالعود ولكنه وجد في طريقه شيئاً يلقط النوى
فصاح الخادم به ليفسح له الطريق ، فرفع الشيخ رأسه فرأى
العود فأخذه من الخادم فضرب به الأرض فكسره . حينئذ
أخذ خادم الخليفة الشيخ الى صاحب الشرطة وطلب اليه أن
يحتفظ به لأنه طلبة أمير المؤمنين . ثم ذهب الى مولاه الخليفة
وقص عليه الخبر فاستشاط الخليفة وغضب واحمرت عيناه فقال
له سليمان ابن أبي جعفر خفف عنك الغضب يا أمير المؤمنين
وابعث الى صاحب الشرطة بضرب عنق الشيخ فقال الامير
لا ، ولكن نبعث اليه ونناظره فلما أحضر الشيخ أمام الخليفة
قال له : يا شيخ ، ما الذي حملك على ما صنعت ؟ فقال الشيخ :
انى سمعت أباك وأجدادك يقرأون هذه الآية على المنبر : ان
الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء
والمنكر والبغى وأنا رأيت منكراً فغيرته فلم يكن من

— ٢٠٩ —

الخليفة الكريم بعد ذلك إلا أن أمر له بجائزة.

*
* *

إذا لم نستطع وفقاً لآداب عصرنا وعرفنا أن نكون في شجاعة
الشيخ المحتسب لنجهر للعائب بعيبه فلا أقال من ألا نسوى في
مظاهر المجاملة بين الأخيار وبين الأشرار.

القاهرة في ١٧ من إبريل سنة ١٩٢٧

القانون الخلقى وجلاله

كثيراً ما يقطع النافلون من الناس أطوال الأرض وأعراضها ويسلكون مسالكها، ويذرعون سبلها، وتقرأ أمام أعينهم مختلف المشاهد وأجناس الناس -- وكم في نفوس الناس من فصول تقرأ منها رواية الحياة العظيمة -- لكن دون أن يتنبهوا لأمر دقيق من دقائق هذه الحياة، ودون أن يصيبوا موعظة مما يشاهدون. وكثيراً ما تتجلى للناظر المتبصر صور من الحياة ظاهرة جليلة في مجلس ضيق محدود يغشونه، أو من حيث تسترق أسماعهم قولاً لطيفاً أو حديثاً طريفاً، وقد ينزع اليقظون مما يحيط بهم زبدة من زبد الحياة أو عبرة من عبرها تخلص لهم كما يخلص المعنى الجامع من القول الطويل عند السامع اليقظ.

واليك صورة تجلت لي وظهر لي معها جلال القانون الخلقى :
في عربة من عربات الترام الذي أكاد أركبه كل يوم لأذهب الى عملي ، اجتمعت فئة من الركاب : فيهم أم مصرية وبجانها طفلها الصغير ، وفيهم بعض رجال من أعمار مختلفة ، وفيهم سيدة خليعة ، وفيهم عامل الترامواي .
أما الأم فكانت مثلاً في الاحتشام توجه الى صبيها نظرات

الحنون ، وكانت تارة تصلح له من ملبسه وتارة أخرى تحدّثه في وداعة وزحمة . بالاختصار كانت كأنها ترى فيه أملها المرتجى ، وسعادتها النابتة ، ونعمتها السابغة ، فلا تكاد نفسها وحركاتها تتوجه إلا إليه وإلى ما يهيمه .

وأما الرجال الجالسون فكان بعضهم مكباً على المطالعة في الصحف ، وبعضهم يتحدثون فيما بينهم في شؤون لهم ، والبعض يرى شيئاً في نفسه من فكرة عارضة تشغل الرأس أو أمر ذي بال . أما الخليعة المكحلة فكانت تتلوى في حركات مصنوعة لتلفت النظر إلى نفسها وكانت تارة تشمر الأزار عن بعض ساقها ، وتارة أخرى تكشف الثوب عن بعض ذراعها ، ومرة تبدى زيتتها ، ومرة أخرى تحاول أن تتحدث مع العامل ، أو مع من حولها من غير حاجة ماسة لمثل هذا الحديث .

أما عامل الترام فكان في ثوب عمله الأصفر مأخوذاً في واجبه ذاهلاً بذلك عما عداه .



سار بنا الترام شوطاً ثم أخذت الخليعة تستوقفه بصوت وعبارات وإشارات كان من شأنها أن تلفت نظر الجالسين ولكن

بامتهان واحتقار. فلما شرعت في النزول التفت البعض الى البعض
ثم التفتوا اليها التفاتاً يدل على امتعاضهم من تلك الصورة
المخجلة . ثم قطع الترامواي بعد ذلك شوطين وقامت السيدة
المحترمة أم الصبي لتأهب للنزول فأخذ الجالسون في عونها
وعون ولدها في صورة من التقدير والاجلال لاحتشامها .



في الصورة التي مثلتها السيدة الخليعة ، والصورة التي مثلتها
السيدة الجليلة ، وفي موقف الناس حيال الصورتين ظهر لى
القانون الخلقى في هيئته الصامته حين يعاقب من يستحقون
العقاب بما تحفظه صدور الناس للناس من احتقار حقيق بأهل
الاحتقار وحين يثيب من يستحقون المثوبة بما تكنه صدور
الناس للناس من احترام حقيق بمن يستحقون الاحترام من أهل
الكرامة . وان عقاب القانون الخلقى عند من يشعرون بعقابه
لمؤلم حديد ، وان ثوابه عند من يعرفون ثوابه لقوى شديد .

أنت أنت الله

إذا ما اتجه الفكر في السموات حيث انتشرت النجوم في الليل ، وإذا ما كل البصر فيما لا نهاية له من الآفاق المظلمة ، وإذا ما خشعت النفس خشعتها من رهبة السكون الشامل ، فانك تشرف بوجهك الكريم من خلال هذه الآفاق ، وتسمع صوتك في ذلك السكون ، وتمس بعظمتك النفس الخاشعة المطمئنة . حينئذ تبدو الآفاق المظلمة كأنها باسمه مشرقة ويتحول السكون الى نبرات مطربة تنبعث من كل صوت ، وحينئذ تغنى النفس الخاشعة لتقول أنت أنت الله .

✱ ✱

وإذا ما كان المتأمل على شاطئ البحر الخضم وأرسل الطرف بعيداً بعيداً حيث تختلط زرقة السماء بزرقة الماء ، وحيث تتحدر شمس الأصيل رويداً رويداً كأنها الأبريز المسحور لتغيب في هذا المتسع الملح الاجاج ، وحيث تنهادى الفلك ذات الشراع الأبيض في حدود الأفق الملون بالوان الشفق كأنها طائر يسبح في النعيم : إذ ذاك يشعر المتأمل بعظمة واسعة دونها عظمة البحر الواسع ، وإذا ذاك تفر العين باطمئنان الفلك الجارى على أديم الماء المهد ،

وفي رعاية الله العمد حيث تكون مظهر العظمة وحيث تطمئن
النفس لرؤية ما تطمئن اليه في منظر جميل ، إذ ذاك يدق الفؤاد
بدقات صدها في النفس : أنت أنت الله .



وإذا ما انطلقت السفينة بعيداً بعيداً في البحر اللجى وهبت
الزواجع ، وتسابقت الرياح ، وتلبد بالسحب الفضاء ، واكفهر
وجه السماء ، وأبرق البرق ، وأرعد الرعد ، وكانت ظلمات بعضها
فوق بعض ، ولعبت بالسفينة الأمواج وأجهد البحار جهده ،
وأفرغ الریان حيلته ، وأشرقت السفينة على الغرق ، وتربص الموت
من كل صوب وحدق ، إذ ذاك يشق ضياؤك هذه الظلمات
والمسالك ، وتحوط رأفتك حول هذه الأخطار والمهالك ، وتصل
بجبال نجدتك المكرويين البائسين ، واذ ذاك يردد القاب
واللسان : أنت أنت الله .



وإذا ما اشتد السقم بمن أحاطته عناية الأطباء ، وسهر الأوفياء ،
ونام بين آمال المخلصين ودعوات المحبين ، ثم ضعفت حيلة الطيب
ولم ينفع وفاء الحبيب ، واستحال الرجاء الى بلاء ، إذ ذاك تظهر

جالساً على عرش عظمتك والنواصي خاشعة والنفوس جازعة
والأيدي راجفة والقلوب واجفة لتقول : أنا قضيت ، ويقول
الطيب والقريب والحبيب : لك الأمر أنت أنت الله .

††
†† ††

وإذا ما باين الدنيا إنسان وباينته إذ ينظر الى المال فيلقاه
فانياً ، والى الجاه فيلقاه فانياً والى الأمانى فيلقاها زائلة ، والى
الآمال فيجدها باطلة ، والى الشهوات فيلقاها خادعة كاذبة ، والى
المسرات فيجدها آفلة غاربة ، اذ ذلك يستغنى عن الجاه والمال ،
ويشغل في نفسه حركة الآمال . وبين جاه يدول وأمل يزول
لا يملأ فراغ النفس الا ذكرك أنت أنت الله .

††
†† ††

وإذا ما وقعت العين على زهرة تتفتق في الكلام ، أو تلاقت
العين بعين يملأها الحسن والابتسام ، وإذا ما أعجب المعجبون
بجمال الفجر المنتفس وتغريد الطير المتربص وعاود الصدر انشراحه
وملأ القلب ارتياحه : اذ ذلك يشرق جبينك النوراني الجميل
فتراك أنت أنت الله

— ٢١٦ —



فبينما يمس النفس من مظاهر العظمة ومظاهر الوسعة
ومظاهر الرحمة ومظاهر القدرة والقضاء ، ومظاهر الدوام والبقاء
ومظاهر الجمال ، والجلال ، اعتاد الناس أن يصفوك بالعظيم ،
والواسع ، والرحيم ، والقادر ، والدايم ، والجميل ، والجليل ،
وأوتار القلوب تردد أنت أنت الله أنت أنت الله

الاسكندرية في ١٨ من سبتمبر سنة ١٩٢٧

عام ١٩٣٠

اليوم ! . . . تنفصل عن العمر لبنة من لبنات الأعمار ،
ويمتد إلى النفس مجرى من مجارى الحياة والأقدار ، فشئ يبيد
وشئ يزيده .

ولماذا أخطبك أيها العام ، وبماذا أتحدث إليك ، ولقد كان
لى مع سابقك قول وخطاب . ولقد كان لى فى مثل هذا اليوم
مع نفسى ، ويبنى وبين مستهلات بعض السنين تذاكر وحساب .
وهانذا أنتظر القول فلا يدنو لى إلى ، وأهم بالحديث فيتوى على ،
واليوم هو أحق الأيام لتحصى النفوس على وضع الحقيقة ما
كسبت وما اكتسبت ، وما كان لها وما عليها ، وما فرطت فيه
وما تطمح اليه . وان هذه الليلة لى أولى الليالى التى يحسن فيها
بالمرء أن يفرد وقتاً ما بنفسه تحت جناح الهدآت والسكون ،
ليستعرض شخصيته الدانية ويستبين آثار ما تدرج اليها من نتائج
التجارب ، وما اندس فيها من معاملة الناس ، حتى إذا دنت منه
شخصيته الصحيحة وبرزت اليه ، على ما هى عليه ، أخذ حينئذ
فى أن يوجه اليها نظرات نفسه الخفية ، وتقدرات بصيرته الفطرية
النقية ، ليجاول تطهيرها من الذنب والدنس ، وتخليصها مما لحق

بها من سوء، وإبرائها مما أصابها من ضعف ووهن... ثم يعمل على تزويدها بالنصح، وتقويتها بالصبر والاحتمال، وانعاشها بالآيمان والأمل. بذلك كله تعد النفوس لترقى مما هي عليه الى ما ينبغي أن تصير اليه وهي شاخصة الى ما يتألق أمامها من مثل الخير النيرة. وبذلك كله نستطيع أن نقول لنفوسنا استقبلي العام الوليد، وسيري على بركة الله في المجرى الجديد.

لكن... لكن مهما يكن الأمر من تجهيز النفس واعدادها فهل سنلقى في عامنا اللاحق، غير ما لقينا في عامنا السابق؟؟
أحسبني لا أخطئ إذا قلت كلا. وأخالني لا أتجاوز الصواب إذا أرى الحياة تتشابه في مجاميع ما تسوق، وفي كليات ما ترسل، وفي مجردات ما تنتهي اليه من الأمور.
ماذا؟؟؟ نواح مستنيرة بيضاء، وأخرى مظلمة سوداء، وأخرى تمتاز فيها الظلمة بالضياء.

ثم ماذا؟؟؟ ألسنا نجد في بعض هذه النواحي اليسر والفرح والرخاء، وفي بعض آخر نجد العسر والكآبة والشقاء، وفي آخر يكون العدل والجود والتفريط والافراط والكد والرخاء؟
ثم ماذا؟ ألسنا نجد في ناحية من النواحي الفوز، والسبق،

والإتهام والغلبة ، وفي أخرى الانكسار والاندحار ، وفي أخرى ما هو معروف من اليقين أو الارتياب ، أو ما هو مألوف من السكون أو الاضطراب ، أو ما هو معلوم من خسة ، ودناءة ، وخديعة ومكر ؛ وغفلة وحذر ؛ وإساءة وإحسان ، ونكران وعرفان ، وغير ذلك مما تنطوي أشباحه في صور الخير والشر . وقد يصيب الناس رشاش من بعض هذا أو من كل هذا في عامهم الجديد كما أصيبوا به في عامهم المنصرم . وقد تشمل الحياة بكل هذه النواحي أو ببعض هذه النواحي فيصيبها شيء من ظلماتها أو أضوائها !! وكذلك الحال في حياة الأمم والجماعات كما هو في حياة الأفراد فقد تحقق لها آمال ، وقد تجديسراً ، وقد تصادف عسراً .

مهما يكن الأمر فيما وجدنا وفيما سنجد فخير موقف نقفه عند استقبال عام ووداع آخر يجود بالنفس الأخير ، أن نرفع وجوهنا الى السماء ، عند دقة الساعة ، وفي مفترق العالمين ، ونقول عند ما تمثل صور الألم والتألمين ، رضاء وصبراً . . . وعند ما تمثل الإساءة تقع من أنفسنا ومن غيرنا نرجو من الله ومن الناس مغفرة وعذراً . . . وعند ما تمثل أمتنا في

— ٢٢٠ —

نهوضها وشبابنا في آماله نسأل الله توفيقاً وخيراً . . . وعند ما
تمثل شؤوننا وشؤون الناس نرسل اليك اللهم حمداً وشكراً ، .
ويطيب للنفس أن تتغنى بالثناء ، وللسان أن يردد : حمداً لله
وشكراً . . . حمداً لله وشكراً . . .

القاهرة في الأول من يناير سنة ١٩٣٠

فهرس

صفحة		صفحة
٥١	فى شم النسيم	١ ضمير قلق
٥٤	عيد آمنة	٥ مآتمنا
٥٨	قراين الانتخاب	٧ نظرة فى الطريق
٦١	الوطن	١٠ رغيى الشفاء
٦٤	« الاكروبوليس »	١٤ الشباب المدبر
٧٠	وقفة بالحصن المقدس	١٦ الدعوات
٧٣	الله أ كبر	١٩ الكأس المرة
٧٩	لقاء الوطن	٢٢ على مسرح الادارة
٨٢	لعام ١٩٢٤	٢٦ واسع الرحمة
٨٦	السباء	٢٨ ساعة عبادة
٨٨	الموت الساخر	٣٠ شكوى الى الله
٩١	عائلة	٣٢ يمين « رولان »
٩٥	ضيق وضجر	٣٦ القهوة والبيت
٩٨	لذكرى الأديب	٣٩ فى ذكرى عام
١٠٢	فى الغابة	٤٤ فى نعيم الفن
١٠٦	دار ودار	٤٧ العيش الحقيير والعيش الكبير

صفحة	صفحة
١٦٤ أيام العيد الفائتة	١١٠ حياة حول موت
١٦٧ التسامح	١١٣ طيف زائر
١٧٢ للعام الهجري الجديد	١١٦ حول ما لله
١٧٦ لهجة ابن الحاقان	١١٩ رحاب العلم ورحاب الدين
١٧٩ الرضا	١٢٢ الغيبة والبهتان
١٨٣ عام ١٩٢٧	١٢٥ حقوق الأفراد
١٨٦ الايثار	١٢٨ الجمود
١٨٩ الدس والحسد	١٣١ الى الفتيات المبعوثات
١٩٣ نصف شعبان	١٣٥ حول الديموقراطية
١٩٦ العفر الطاهر	١٣٨ فكر سجين
١٩٩ التصنع والتواضع	١٤٣ صورة من صور النفاق
٢٠٢ أيام العيد	١٤٦ صورة من صور التقلب
٢٠٦ الاغراق في المجاملة	١٥٠ سعادة الباشا
١١٠ القانون الخلقى وجلاله	١٥٤ لعام ١٩٢٦
٢١٣ أنت أنت الله	١٥٧ عند اطلال طيبة
٢١٧ عام ١٩٣٠	١٦٠ الكرنك

